مدارج

عبدالوهاب بن منصور

الحيّ السفليّ

رواية

مكتبة نوميديا 92
Telegram@ Numidia_Library

مجد الرواية

مدارج

الوسام العربي

عبد الوهاب بن منصور

الحيّ السفليّ

رواية

الوسام العربي مجد مدارج

الحي السفلي (رواية)

عبد الوهاب بن منصور روائي جزائري

الطبعة الأولى بيروت /الجزائر 2016

الرقم الموحد للكتب والدوريات ردمك: 9789931928133

© جميع الحقوق محفوظة لمنشورات مدارج

المرينيّين المنصورة محل رقم 02 تلمسان الجزائر

البريد الإلكتروني: madarij13eddi@gmail.com

هاتف: 43381923 (0)213+
771216223 (0)213+

صدرت هذه الطبعة بالاشتراك مع:

- **المؤسسة الجامعية للدراسات** (سلسلة مجد الرواية)

منطقة الحمرا، تقاطع اميل اده والسادات، بناية سلام الطابق الرابع ص ب 6311/ 113 **بيروت لبنان.** هاتف: 791124 -1- 00961.

- **الوسام العربي** البوني 01 قسمة 63 بناية 47 عنابة الجزائر

البريد الإلكتروني: *darelwissemelarabi@yahoo.fr*

لوحة الغلاف للفنانة ملاك الشاذلي من مصر.

جئت هذا العالم، كي أحتج.

مكسيم غوركي

منذ وعيت وأنا أحلم.

لم أجد غير الأحلام لأحافظ على إنسانيتي قدر ما أمكنني من واقع صار يشعرني بالخواء والعماء. ومع الوقت، تعلمت أن الأحلام تجنبني عتبة الجنون وتمنحني أمل الاستمرار في الحياة. أحلام، صنعتها لنفسي، قد تتحقق أو لا تتحقق. لم أهتم لذلك، مقتنعا أنّ الموت سيباغتني ذات لحظة منهيا الرحلة. الموت هو الحقيقة الوحيدة التي آمنت بها ورافقتني كواقع عليّ أن أنتظره أو ألجأ إليه، منذ أن وقفت أمام جسد أمّي وهو يلفظ نفسه الأخير.

كان المشهد حزينا ومؤثرا، رغم أنّه كان منتظرا منذ أن وُضِعت تلك العلامة بالجير الأبيض عند مدخل البيت. العلامة [x]، التي تكاثرت بين بيوت الصفيح وصارت تزيّن

مداخلها، ولم أدرك سرّها إلاّ حين مُنعت من مغادرة البيت وأنا أتأبطّ لوحتي، قاصدا جامع الحيّ. عدتُ إلى أمّي التي فقدت لون وجهها الأسمر ولم يعد يظهر منه إلاّ أسنانها البيضاء، فلم تع شيئا مما حدث، كما لم تع ما قلت ولم تنتبه لبكائي. مسحت جدّتي دموعي وأجلستني جنبها، لكنها لم تستطع منع دموعها التي نزلت على خديها. حاولت إخفاء وجهها فضمتني إليها وتحسست جبيني. كانت تتحسس جبيني عشرات المرات في اليوم لتتأكدّ من عدم إصابتي بالعدوى، وتبعدني عن أمّي قدر ما استطاعت. ثمّ تحضر لي شرابا من خليط اللّفت ونوّار التين البربري أتناوله عدّة مرات في اليوم بعد أن تُتمتم وتقرأ عليه بعضا من آي القرآن، مؤكدّة لي أنّه يحميني من العدوى ويخفّض من حرارة جسدي.

لم يحزني فقدان أمّي، في الأسبوع الثالث بعد رسم العلامة، بقدر ما أحزنني شعوري بالعجز واليأس أمام الموت، وهؤلاء الّذين يقفون خلف الباب يمنعون الدخول والخروج من البيت. يخافون علينا منّا. والعدوى تنتشر (لكنها لا تخرج عن حيّ الصفيح). عدوى لا تفرق بين المواطن والخائن، مثلما لا

تفرق بين المؤمن والكافر. إنّها تعليمات المكتب الثاني *، والحزب الّذي يفكّر فينا دائما ويدرك مصلحتنا. وبوقه المحمول في سيارة صغيرة بيضاء من نوع رونو 4 لازال يجوب شوارع المدينة منذ أربعة أسابيع، ينبّه الناس إلى هذا الابتلاء الإلهي، ويحذرهم من الاقتراب من حيّ الصفيح، ويعطي تعليماته للإبلاغ عن كلّ حالة مشبوهة معتبرا ذلك من صميم الوطنيّة وقوّة الإيمان. كلّ شيء جاهز لمواجهة عدوى الكوليرا عدا الدّواء.. إنّها إرادة الله.

ومن يقف ضدّ إرادة الله؟.

أعوان الحزب، بأمر من المكتب الثاني، غزوا منابر مساجد المدينة وتحوّلوا إلى أئمة مختصين في الوعظ والإرشاد. كان عليهم إقناع النّاس بالحجّة والبرهان أنّ الكوليرا ليست عقابا إلهيا، وأنّ دفن الميّت بسبب الكوليرا دون غسله في تابوت مغلق تجنبا لنشر العدوى لا يتعارض مع قيّم الدين الإسلامّي، الّذي يفرض على المؤمن أن يحفظ الإنسان الحيّ

---

*المكتب الثاني: اسم موروث عن مكاتب التحقيقات والاستعلامات الاستعمارية ويشير لمكتب المخابرات.

قبل الميّت، وما الجسد إلاّ وعاء يحمل الرّوح، الّتي تصعد إلى ربّها سابحة في ملكوته. ولم يغفلوا عن تقديم الأدلّة والشواهد من التاريخ الإسلامّي.

إمام الجامع الكبير اختفى منذ أسبوعين، بعد خطبة مثيرة عن العدوى كعقاب إلهي لمجتمع ابتعد كثيرا عن الدين وشريعته السمحاء، وخالف وعود شهدائه. وكثرت بشأنه الحكايات. حكايات تتداول في السرّ رهبة من أذن وأعين أعوان "الرّوخو الفسيان"(*) بالمكتب الثاني، الّذي حضر بنفسه إلى حيّ الصفيح وأعطى أوامره بالحجر على كلّ من يشتبه بإصابته بالمرض دون انتظار تقرير الطبيب.

أواجه الموت. أعرف أن المواجهة ليست سهلة. لكني لا أملك غير سلاحه. المباغتة والفجأة حتى أصل العتبة. وعليّ أن أتخطاها. فكرت في الانتحار كتجربة للّحظة الفاصلة بين الحياة وما بعدها. لم أرَ الانتحار هروبا من واقعي. إنما هو المحطة الّتي وصلت إليها.

---

* الروخو: كلمة تعني الأشقر والفسيان تعني الضابط.

لم يطل زمن تفكيري في الانتحار بقدر تفكيري في طريقة مجدية توصلني إلى غاية تصورت أنه لم يصلها أحد قبلي. لكن، عليّ أن أتحدّى تلك اللّحظة الّتي تأتي بغتة وفجأة، فحددت زمانها ومكانها. ثمّ، هازئا من الموت، غيرت عدّة مرات زمن ومكان تلك اللّحظة معتقدا أن ذلك سيفقدها قيمتها وقوتها، كما المرأة تضرب لها موعدا للقاء ثم لا تأتيها، فتظل مترددة بين الانتظار والذهاب وهي تختلق قصصا لتجد لك عذرا لعدم مجيئك.

في يوم غير عاد. يوم، تُرفع فيه الأعلام وتُوضع باقات الورود على قبور الشهداء. يوم لتخليد الموت. موت الإنسان لأجل حريته. يوم، اعتقدت لأعوام عديدة أنّه اليوم الّذي تحرر فيه الإنسان، ولم أكن أبغي غير تحرير نفسي، الّتي لم تشعر أبدا بحريتها ولا بحرية من حولها. اغتسلت وتعطرت كمن يتهيأ للقاء حبيبته. لم أكتب وصيّة ولم أودع أحدا، حتّى جميلة لم أشر لها مجرد إشارة بقراري حتّى لا تتوهم أنّها سبب انتحاري، فتعيش بضمير يؤنبها وتتحوّل حياتها إلى جحيم. لا أنكر أنّي فكرت في ترك ورقة تبرئها من الفعل ومن سببه،

رغم أنّ لا أحد سيتهمها بعد ما حدث بيني وبينها. أردت أن أجعل من موتي لغزا يغزو لبضعة أيام أحاديث الناس.

مع الضحى، زرت المقبرة لأتعرّف على المكان الّذي سيُؤْوي جسدي. وجدت الحفّار، كعادته، يهيئ ثلاثة قبور لاستقبال الموتى الجدد. سألته عن أحوال الموتى، فلم يندهش من سؤالي واكتفى بابتسامة رقيقة، وهو يؤكد لي أنّ حالهم أفضل من حالنا. وحين وقفت أمام قبر أمّي تخيلتها تعاتبني عن تأخري في اللّحاق بها، فوعدتها بلقاء قريب. وخشيت أن يعاتبني كلّ من عرفت وسبقني إلى هنا، خاصة في عام الكوليرا، فأسرعت الخطى مغادرا المقبرة وبداخلي رغبة للعودة للنّوم، في هذا المكان الهادئ والمألوف عندي.

اختليت تحت شجرة الخروب في الجهة الشمالية لحيّ الصفيح. لم أرغب في الموت بداخل الضريح، لأنّي رأيت في ذلك تطويقا لحريتي وتعذيبا لروحي، الّتي قد لا تجد منفذا لتصعد إلى ملكوتها فتظل حبيسة أربعة جدران.

لا أنكر أن اختيار طريقة الموت كان بالنسبة لي

أصعب من الموت ذاته. لقد فكرت في فشل المهمة أكثر مما فكرت في الموت. مثلما فكرت في الحالة الذي سيؤول إليها جسدي. والجسد بعد الشنق يثير شفقة كل من يراه. وأنا، لا أحبّ أن أثير شفقة أحد، مثلما لمْ أثرها وأنّا حيّ أرغب في الحياة. أحب أن أموت ورأسي مرفوع لأعلى. لكّن ماذا أفعل لو خدعني جسدي وترك الرأس تنحني إلى الأسفل؟. أو تغيّر لون وجهي وفقد ابتسامته؟.. أسئلة لم أفكّر فيها من قبل. راودتني وأنا أتهيأ للموت، فأبعدتها من تفكيري مقنعا نفسي بأنّها من وسواس الموت الّذي عليه أن يخيف. يرهب. فحصت جيدا أغصان الشجرة. أغصان يابسة قد لا تستطيع شدّ جسدي، فقررت أن لا يكون موتي شنقا، ليس خوفا منه وإنّما لا أحب أن أفشل في مهمتي وتأخير موعده.

لففت سيجارة حشوتها بالكيف. تفنّنت في لفّها كعادتي. الصّنعة التي أجيدها. أخذت أنفاسا طويلة ومتتالية. ملأت قفص صدري وحبست أنفاسي تاركا الدخان يتسلل عبر عروق دمي، متلذذا بالخدر الّذي بدأ يسري في كامل جسدي. ثمّ حررت الدخان بعد أن استنفذ مفعوله، فأخذت

أنفاسا أخرى..

كلّ شيء من حولي توقف. توقف عن الحركة. فقط يدي اليسرى بدأت ترتعش. أدركت أنّ مهمتها عظيمة. بحلقتُ فيها طويلا وابتسمت. وباليد الأخرى تحسست أصابعها وكفّها، ثمّ داعبتها، مثلما كنت أداعب كفّ صديقتي جميلة، الّتي، ربّما، سترتعش يداها حين يصلها خبر موتي، فكفّت عن الارتعاش. خشيت أن يراود الشك أعضائي فتخذلني في هذه اللحظة. فقررت المواجهة. عدلت من موضع جسدي على جذع شجرة الخروب وألقيت عليها نظرة أخيرة. نظرة وداع وهي التي احتضنتني سنين طويلة. ابتسمت. وضعت يدي اليسرى على ركبتي. أخرجت من جيب معطفي الجلدي موسى حلاقة جديد. ثم مرّرت الموسى ضاغطا. لم أشعر بألم كبير. كان الجرح عميقا. خرج الدم ولطخ الموسى. أطلقت يدي فسال الدّم غزيرا وأحسست به ساخنا. أخذ لونه يتغير. يسوّد. رفعت رأسي إلى السماء وتركت بصري يذهب بعيدا. أحسست بدبيب الموت يقترب. يتصاعد من أخمص قدمي. صار الدبيب قشعريرة. قشعريرة باردة تجتاح

جسدي. قاومتُ عيني، حتّى تظلا مفتوحتين. أشعر بلذّة لا تقاوم. لذّة لا تشبهها لذّة. لذّة الموت. فاستسلمت لها مبتسما.

***

موت أمّي في ذلك المساء لم يشفع لنا، أنا وجدّتي، من مغادرة البيت، كما لم يشفع لأبي ولا لأخي من الدخول. حرس المكتب الثاني عند الباب رفضوا ذلك. لم أسمع إلاّ كلمات الرفض والمنع باسم القانون والشّرع رغم محاولات جدّتي المتكررة بتهديداتها. تهديدات بمعارفها في المكتب الثاني بمن فيهم "الرّوخو الفسيان"، الّذي تعرفه أكثر من غيره ولا يمكنه أن ينكر فضلها عليه وهي الّتي هربته جريحا في قدمه اليسرى، بعد معركة كان فيها زوجها أول الشهداء، من جبل "فلاوسن" حتّى معسكر جيش التحرير "بوجدة" المغربية لتلقي العلاج في مدّة لم تتعد يوما واحدا، اندهش لها كل من كان بالمعسكر واعتبروها مدّة قياسية. وراح بعضهم يسألونها عن الطريق الّذي سلكته. أدركت جدّتي من خلال أسئلتهم المتعددة والمختلفة أنّ الشك يراودهم فأخذت تدعو الله أن

يستفيق "الروخو" من غيبوبته ليؤكد صحة قولها، ويروي بنفسه تفاصيل تلك المغامرة عبر جبال"فلاوسن" وعصفور.

ظلت جدّتي تلطم وجهها وخديها ومن حين لآخر تعود لتهديداتها بالشكوى والكتابة لكل المسؤولين رغم أن الحرّاس أغلقوا الباب من الخارج بعد أن وعدوها أنهم سيبلغون قائدهم برغبتها في رؤيته.

انزويت أمام أمّي. كانت أنفاسها ساخنة تصلني أو اعتقدت ذلك. تحسست جسدها. كان باردا. تلذذت ببرودة الجسد. حاولت أن أنام لأنسى الجوع وجدّتي التي لم تكف عن البكاء والعويل، لكن حرارة الطقس جعلت جسدي يتصبّب عرقا فألتصق بجسد أمّي أكثر.

استفقت على صراخ جدّتي في وجه "الروخو" وثلاثة من مرافقيه، بعد أن نمت. ولا أدري كيف تم ذلك. كان الفراش (فراش أمّي الذي تكومت فيه جنبها)، قد تبلّل. اقتربت من جدّتي. تفحصتني جيدا وقطبت حاجبيها وعادت لصراخها في وجه "الروخو" الّذي بدوره تفحصني ثم أومأ

بإشارة من عينيه لأحد مرافقيه فاقترب مني ووضع يده على جبهتي وفحص عيني وشدّ جلد بطني، ثم أعاد بصره "للرّوخو" وقال:

- لا أدري كيف لازال على قيد الحياة؟.

- هل يمكن إنقاذه؟

سأل "الروخو" وهو ينظر في وجه جدّتي كأنه ينتظر منها الجواب. قابلته بنظرة فاحصة. لم تقل شيئا بفمها. تركت بصرها يقول.. التفت إلى مرافقيه وهزّ رأسه. تحرك المرافقون نحو جسد أمّي. رفعوا الإزار الأبيض عند الرأس. بحلقوا فيه ثم أعادوا الإزار كما كان. تبادلوا النظرات فيما بينهم وانصرفوا.

حاول "الرّوخو" أن يصمد مواجها نظرات جدّتي الّتي بدأت تتلألأ من أثر بعض الدموع التي نزلت رغما عنها. فخانته عيناه. أخذ يبحث، بعينيه ليتخلص من نظراتها الحادة، عن مكان في "الحوش" يجلس فيه، فلم يجد غير عتبة الباب. جلس. وضع يديه على ركبتيه، ورأسه بين كفيه وأرسل تنهيدة عميقة.

ظلت جدّتي واقفة مكانها كأنها نسيت نفسها. لم تمسح دموعها التي تكاثرت على خديها، ولم تحوّل بصرها عن "الروخو" الّذي حاول مرات متكررة أن يحرّر رأسه من بين كفيه فتواجهه عيناها فيعيد دفن رأسه بين كفيه.

لا أدري ما الّذي شدّ بصري "للرّوخو". ربما هي حكاية جدّتي الّتي كانت تفتخر بها، والّتي سمعتها منها مرّات عديدة وجعلت منها بطلة بعد أن أنقذت بطلا. البطل الّذي يدفن رأسه بين كفيه هروبا من مواجهة عيني جدّتي، اللّتين تشعان ألما وحسرة. أشعر بالشفقة ناحيته. لقد بدا صغيرا في صورته تلك. لست أدري ماذا كان ينتظر. كان جامدا في مكانه..

التصقت بجدّتي. ربتت على رأسي. ومسحت جبهتي بطرف بلوزتها، ثمّ جرتني بهدوء إلى المطبخ. غسلت وجهي وناولتني الخليط، الّذي لم أشربه طمعا في الشفاء بقدر ما شربته لسدّ الرّمق وترطيب فمي الجاف، ثم قالت بصوت منخفض كأنها تهمس لنفسها:

- لن أتخلّى عنك.

خرجت ووقفت أمام "الرّوخو". ألقت عليه نظرة ثاقبة وقالت:

- لا تجعل تصرفاتك تشعرني بالندم.

رفع رأسه قليلا متجنبا مواجهتها وقال بصوت مبحوح:

- أنت تعرفين هذا النظام.. أحيانا لا نستطيع أن نفعل شيئا.

- لكنك لم تفعل شيئا وأنت تستطيع.

لم يجبها. ازداد ووجهه الأشقر حمرة، فأعاد رأسه بين كفّيه. ارتفع صوت تنهداته كالشخير.

***

أشعر بثقل جسدي. كل أعضائي مشدودة لبعضها البعض. أحاول تحريك أصابعي. رأسي. مفاصلي معطلة. لم تعد تؤدي مهمتها. أبذل جهدا لفتح عيني. يغمرني ضوء فأغمض عيني. لا أقوى على مجابهته. أحاول من جديد فتح عيني متجاهلا الضوء، الّذي بدأ يتكاثر أشعة تتلوّن بألوان قزح. جفنا عيني تتحركان إلى أعلى ثمّ إلى أسفل في حركة لاإرادية. يتبادر إلى ذهني سؤال يثيره الضوء وينسيني ثقل الجسد:

أين أنا الآن؟.

على وقع السؤال، تنفتح عيناي متجاهلة الضوء. يتحرك رأسي يمينا وشمالا. لكن يديّ ظلتا على حالهما. أجهد ذهني لأتعرف على هذا المكان. أربعة جدران. تقابلني ستائر لست متأكدا من لونها (يبدو اللّون بنيا يميل إلى السّواد). دون شك تخفي نافذة (إذْ ما الفائدة من وجود ستائر إن لم

تخف نافذة). وعن يميني، على بعد خطوتين، باب. باب مغلق. وعن يساري، طاولة صغيرة بدرج، وليس عليها شيء، أمامها كرسيّ بلون أزرق فاتح. صمت رهيب يلف المكان. أحاول أن أتنحنح لأكسرَ هذا الصمت. حلقي جاف. أحرّك لساني في فمي بحثا عن اللعاب. أحس بالعطش وبصعوبة التنفس. الهواء يدخل ساخنا إلى رئتيّ. أكاد أختنق.

أسمع وقع أقدام. الوقع يتكاثر. يقترب. ينفتح الباب. تدخل امرأة. تفتح فمها مبتسمة. يتبعها رجلان. تنظر إليّ. ثمّ تحوّل نظرها لمرافقيها. تبادلوا النظرات. تقترب منّي. تفحص يديّ بلطف. أحسّ بنعومة أصابعها وبرودة يدها. فاكتشف أنّ يديّ مربوطتان إلى السرير. أنظر إليها مستفهما. تبادلني نظرة عطف وشفقة. ثم تربت على كتفي. وتستدير لمرافقيها وبصوت خافت تقول:

– حالته لازالت سيئة، لكنها مستقرة.

أفهم أنها تقصد حالتي. حالتي السّيئة. أوافقها. أدرك أن حالتي سيئة. لكني لا أنظر إليها من نفس زاويتها. لا أحد يستطيع أن يدرك حجم السوء الذي أنا فيه الآن. فشلت في

مهمتي. لم أغادر هذه الحياة. خانني الموت. هرب مني وتركني لإثارة شفقة وعطف هؤلاء.

- فقَد كثيرا من الدم!

تقول، ثمّ تستدير نحوي وتضع يدها اليمنى على السرير والأخرى في جيب مئزرها الأبيض (بدأت أتبين الألوان ولأتأكد بحلقت مرة أخرى في الستائر، فكان لونها أبيض، أو في الأصل كان أبيض، لكنه صار يميل إلى الصفرة الغامقة، وتظهر عليها بقع بنيّة)، وتضيف بصوت هادئ ومتزن:

- من حسن حظه أنهم جاؤوا به قبل فوات الأوان.

أستمع إليها. ليس رغبة في سماعها (أدرك رغم حالتي السيئة أن ما تقوله سيزيدني سوءا)، إنما صوتها يأتيني رغما عني. ومن كلامها (الهادئ والمتزن) أكتشف أن الموت لم يأخذني لأنّ أطرافا أخرى تدخلت وجاءت بي إلى هنا قبل فوات الأوان. فكرت في أن أسألها عن هذه الأطراف الأخرى الّتي تحالفت مع الحياة حتّى لا أغادرها، لكني لم أقوَ على الكلام. أدركت أنّي عشت خيانة ما.

تقترب مني أكثر بعد أن حررت يديها من جيبها ومن السرير في حركة آلية وسريعة. تبتسم في وجهي. أحاول أن أبتسم. أن أعيد ابتسامتي الغائبة. تلك الابتسامة التي تمنيت أن تظل مرسومة على وجهي وأنا أغادر هذه الحياة. تبتسم أكثر وهي تحدق في عينيّ (تكون قد لاحظت محاولاتي لأن أبتسم لها). ثمّ ربتت، هذه المرة، على كتفي اليمنى بلطف وغادرت القاعة. بقيت وحيدا (لا أعرف لما أقول وحيدا رغم وجود رجلين بالقاعة). انتابني شعور مخيف. مخيف إلى درجة جعلني أترقب ملامحهما ووقفتهما. ظلاّ صامتين. مسمرين مكانهما. أتمنى عودتها لكسر هذا الشعور. أترقب دخولها عند الباب بطرف عيني اليمنى.

لا أدري كم من الوقت مرّ عليّ. بدا لي زمنا طويلا. وقع أقدامها يصلني. أصغي. يقترب وقع الأقدام أكثر. تنفتح عيني معه أكثر. فأراها تدخل. تبتسم. تقف أمامي. في يدها كأس ماء تضعه على طاولة جنبي. تخرج من جيب مئزرها قطعة قطن. تبلّلها. ثم تضعها على شفتي وتضغط. تتسلل قطرات الماء فترطب فمي. أحرك لساني. أشعر بنشوة. هي

الحياة تعود. أفتح فمي لالتقاط قطرات الماء. أحس بأصابعها تمسح شفتي. أتفحصها (أو بالأحرى أتفحص وجهها وابتسامتها). بداخلي أتمنى أن لا تتوقف وأن يتوقف الوقت (الآن أخشى سرعة الوقت وقبل ذلك كنت أخشى بطأه).

لم تذكرني هذه المرأة ولا ابتساماتها ولا نظراتها الفاحصة بشيء سابق في حياتي، إلاّ أني شعرت بألفة ناحيتها. ألفة لم أجد لها تفسيرا ثابتا ومحددا لكني بديت سعيدا بهذا الشعور. أغمضت عينيّ فأحسست بجسدي خفيفا يطفو سابحا بين السماء والأرض.

أستفيق من غفوتي على صرير الباب وهو يُفتح. ألمح الشبحين. يقفان أمام سريري. أيديهما متشابكة على صدريهما. لا يتحركان لكنهما كانا يتفحصان وجهي بنظرات ثاقبة (تمنيت لحظتها أن أرى وجهي في المرآة لأتعرف عليه بنفسي وليس من خلال عيونهما). أغمض عيني هروبا من نظراتهما وأحاول أن أعود إلى غفوتي. أن أنسى وجودهما (ليس سهلا على أحد أن يجد نفسه في مكان ما مع أشخاص آخرين لا يعرفهم ولا يعرف لماذا يقاسمونه المكان).

- علينا أن نجد حلاّ.

يخترق صوت أحد الشبحين رأسي، فأفتح عينيّ فزِعا.

يهز الآخر رأسه موافقا ثم يضيف:

- وفي أسرع وقت. لا يمكننا أن نستسلم لطبيبة شابة لا تعرف ما تفعل.

- بإمكاننا أن نضيف ذلك في التقرير.

***

مع الضحى، انهارت جدّتي بعد أن دخلت في دوامة من البكاء والعويل. ولم يكن بكاؤها خاليا من عبارات السبّ والشتم. لم تستثن أحدا من مسؤولي المكتب الثاني (كانت تذكر أسماء أشخاص ثم تقوم بعرض تاريخهم بسخرية مفرطة وبتفاصيل مملة). وفي لحظة من الصفاء (صفاء صوتها من البكاء) تقترب مني. تضمني إلى صدرها. تقبلني بحرارة (أحسست بحرارة دموعها على خدي وجبهتي) وهي تقول مردّدة:

- هي في الجنّة.

الجنّة. تخيلتها مكانا واسعا رحبا. حديقة كبيرة (لست أدري لما أرى دائما الحديقة كصورة مرادفة للجنة)، مليئة بالأشجار العالية ذات خضرة ناضرة (أستحضر لونها الأخضر من لون شجر الخروب، مبعدا الألوان الأخرى). ثمّ. ثمّ أتخيل أمّي بين تلك الأشجار. تبتسم (لا يمكنني أن أتخيل وجهها دون تلك الابتسامة الخجولة المرسومة في ركن فمها) وتنتظرني. أتفحص جيدا عينيها. تشعرني بنشوة. نشوة يختلجها الارتباك حين أدرك حجم المسافة بيننا. المسافة التي رسمتها لي جدّتي بنظرة حاولت تتبعها ففاقت قدرة بصري. تتملكني الحيرة، فأتطلع إلى السماء ومن ورائها إلى سموات أخر وأعدّ بأصابعي. واحد، اثنان.. سبعة. أتوقف عن العدّ. ويتوقف معه مجال خيالي. كيف السبيل إلى السماء السابعة؟. أحدق طويلا في السماء وفي الفضاء اللامتناهي. أبحث عن وسيلة سفر. أستحضر أمّي. أراها تحلق وقد نبت لها جناحان. تطوف فوق رأسي. ملامحها لم تتغير. تلك الملامح التي تمنحني الحياة وحبّها.

أصحو على طقطقة بالباب. أجول ببصري بحثا عن

جدّتي. أراها وسط "الحوش". ما تزال قابعة مكانها. لم تتحرك. تتمتم. لا أفهم ما تقول. تلتقي أعيننا. أضطر إلى تغيير مجرى بصري. تقوم جدّتي بعد أن مسحت ما بقي على خديها من دموع. تفتح البابَ. تخرج رأسها. ثم تعود حاملة كيسا من ورق. تضعه أمام العتبة. يدخل وراءها رجلان. الطبيب الهندي (أتبيّن ذلك من خلال تقاسيم وجهه) الّذي يدخل أوّلا ويكتفي بابتسامة خفيفة، ثمّ يتبعه مساعده، الّذي تباغته جدّتي بسؤالها قبل أن يكمل تحيته:

– هل دفنتموها؟.

– نعم.

تخفي جدّتي عينيها بين كفيّها. تشهق باكية. تحاول ضبط بكائها. يدرك مساعد الطبيب حجم معاناتها. فيضيف محاولا التخفيف عنها:

– كان الحشد كبيرا. لقد حضر كلّ المسؤولين، وقد أمرونا أن نتفقد يوميا الولد.

تهز جدّتي رأسها (هزّة رأسها توحي بالحسرة والاستسلام ودون أن ترفعه إلى أعلى أو ترفع عينيها). يقترب

مني الطبيب الهندي وهو يقول بلغة متقطعة وبإشارات من يديه:

– ولهذا جئت.

يفحص عيني. ثم فمي. يتلمس جبيني. يشدّ جلد بطني. يتسمع لدقات قلبي. يعاود فحص عيني وفمي. ثم يطلب مني أن أملأ كأسا بالبراز أخرجه من محفظة مدرسية صغيرة. ثم حضّر حقنة وحقنني. وحين همّ بالخروج، قال مساعده لجدّتي وهو يمسح بيده على جبهتي:

– سنعود في الغد. حالته تتحسن.

مع المساء قامت جدّتي وفتشت الكيس الملقى على مقربة من عتبة الباب. تخرج ما بداخله وتهز رأسها. بنّ. سكّر. خبز. لحم معلّب.. وشكولاطة. تتطلع إليّ جيّدا كأنها تراني لأوّل مرّة. تمنحني الشكولاطة، وتترك الباقي على الأرض. أحتفظ بتلك القطعة في يدي. لا رغبة لي في تناولها (أو بالأحرى نظرات جدّتي جعلتني أكره الشكولاطة)، فأعيدها مع الأشياء الأخرى. أنظر إلى جدّتي فلا تعقب. وألمح خلف شفتيها ابتسامة (تلك الابتسامة التي لا تظهر إلاّ في حالات

القهر والعجز، كتعبير عن المواجهة والمقاومة).

مع الخيوط الأولى لليل بدأت جدّتي في مناجاة أمّي. تحدثها وتسألها عن حالها. أجول ببصري باحثا في "الحوش" فلا أراها (لحظتها خمنت أنّي سأبيت ليلتي الأولى دونها). أسأل جدّتي. فتخبرني أنها تسمعنا وترانا من مكانها في السماء. أبحلق في السماء طويلا فلا أرى إلاّ عتمة. أجهد بصري. فأرى جسدي محلقا وقد نبت له جناحان، يبحث عبر السموات السبع عن أمّي.

أغفو ثمّ أصحو منجرفا من حلم. تنكسر أجنحتي فأفقد القدرة على الطيران، فأهوي في الفراغ من عتبة السماء الأولى. أنظر إلى جدّتي وأتكوّم أمامها (لم تفارق مكانها ولم تكف عن مناجاة أمّي). ثمّ أتطلّع إلى السّماء. أتلهى بعّد النجوم، ثمّ أشعر بالسأم حين يخذلني العدّ.

***

أستفيق من النّوم على طقطقة أقدامها. أتطلع إلى الباب وأنتظر مرتبكا. أخشى أن يخذلني سمعي (صار رهاني أن أمّيز صوت وقع أقدامها من بين كلّ الأصوات الأخرى). ينفتح الباب دون صرير فأتنهد. تتطلع إليّ. أتطلع إليها. أدرك أنها تريد أن تقول شيئا. أنتظر. لكنها تتجه إلى الستائر وتزيحها، ثمّ تفتح النافذة، فيغمر وجهها ضوء باهت. أتفحصها جيدا. أكتشف لون عينيها. وأحاول أن أتذكر صورتها الأولى. يبدو وجهها أكثر دورانا. وعيناها أكثر اتساعا (لكنها حين تبتسم تقوّس عينها اليسرى). وبخطوات متزنة وهادئة تتجه إلى الباب وتغلقه. تستدير نحوي. تتفقد يديّ. أحس بأصابعها باردة وهي تمررها على معصميّ.

تجلس على طرف السرير عند قدميّ. تنظف صوتها. يشيع الدّم في وجهها. تختفي ابتسامتها تدريجيا. أدرك أنها بذلت جهدا قبل أن تقول:

– لقد سمحت لهما بالتحدث إليك.

يغيب سحرها في الفراغ. تنسحب من الغرفة في لمح البصر. أحاول أن أحتفظ بصورتها الأولى أمام ناظري. لكن وقع أقدام يشوش خيالي. فانتبه وأنتظر.

يدخل الشبحان. أحدها يحمل كرسيّا ومحفظة. يضع الكرسي عند رأسي ويجلس. أتابع حركاته. يُخرج ملفات وأوراقا. أسمع صرير قفل يستدير. أدير وجهي ناحية الباب فأرى الشبح الآخر يتجه إلى النافذة ويغلقها، ويعيد الستارة كما كانت. ثم يتطلع إليّ. نظراته ثاقبة. فاحصة.

صمت رهيب ينزل عليّ. و بدأت خطوات الشبح في الدوران بين الباب والنافذة. في حين ظلّ الآخر جاثما على كرسيّه. أشعر بسخافة الموقف. فأحاول أن أبقي بصري معلقا إلى مصباح الغرفة.

– هذا ملفك. يباغتني الشبح الجالس. أستدير نحوه. أرى ملفا أحمر يرفعه بيده. أتطلع إليه محاولا أن أفهم. فيأتيني صوت الآخر:

– تعتقد أنّنا لا نعلم شيئا.

- حياتك بين دفتي هذا الملف. يقول الجالس.

- أنصحك أن تكون صريحا متعاونا معنا.

- حتّى لا نضطر إلى الطرق الأخرى. أضاف الآخر مبتسما.

- خاصة وأنّك تعرف جيّدا الطرق الأخرى.

- لقد زرتنا من قبل.. أو، تريد أن نذكرك؟.

- تحبّ أن تكون بطلا؟. يعقب الأوّل ساخرا.

يتشتت ذهني. أرتبك. هل أنا معني بما يدور؟. يزداد الموقف سخافة حين اقترب الشبح الواقف وتطلّع إليّ بعينيه الغائرتين (وقف بيني وبين ضوء المصباح فأدخلني مسرحيته مرغما، فأقرر بداخلي أن أتقمص دور شخصية بكماء).

- إن لم تتكلم فإنك تعرف ما ينتظرك.

أعرف ما ينتظرني (لكني لا أعرف إذا ما تغيّرت تلك الطرق وتطوّرت بعد ثلاث سنوات). أتذكر الزيارة الأخيرة،

وأنسى ما أنا فيه الآن. فيعاودني الألم. ألم في مواضع كثيرة من جسدي جراء استنطاق أعضائي (كان شعارهم وقتها: إن لم تتكلم بلسانك وإرادتك فستكلمنا أعضاؤك). كانوا يتلذذون بتخريب جسدي (لم أكن أتخيل أنّ إنسانا يتلذذ بصراخ وعويل إنسان آخر). لم يكن هدفهم البحث عن حقيقة ما مثلما كنت أتصور. وكلما اعترفت بتهمة تتدرج إلى تهمة أخرى. فالتهم جاهزة. إنهم يبحثون عن أعداء (أو بالأحرى يصنعون أعداء وخونة). هم بحاجة إليهم، ليتحولوا إلى ضحايا.

أحاول أن أقرأ في وجهيهما تهمتي الجديدة. وأتهيأ للاعتراف بها، فلا فائدة لي من إنكارها (لا يعني لي هذا استسلاما). على الأقل أتجنب بعض طرقهم التي لا أقدر عليها كإنسان. وبداخلي أتمنى أن تكون تهمتي كبيرة أستحق عليها الموت.

يباغتني الشبح الواقف بصوته الغليظ كأنه يقرأ خطبة:

– بعد أن أفسدت الناس بأخلاقك وشعاراتك التي

لا ندري من أين جئت بها، تتحرك هذه الأيام لتشكك في تاريخنا. تاريخ أولائك الذين ماتوا من أجل أن تحيا أنت.

يصمت. يتطلع إليّ. يحاول أن يقرأ وَقْع كلامه في وجهي. ينظف صوته. ثم يضيف:

- هل تدرك حجم خيانتك؟ إنّك تستحق عليها الموت.

أعتقد بحق أنّي أتمنى الموت ولا أخشاه. الموت بإرادتي. لكني أخشى أن أموت بإرادتهم مخلفا ورائي إرثا لا يتعدى ملفا أحمر يحوي ما يشاؤون من التهم.

***

في اليوم التالي، أستلقي على ظهري في وسط "الحوش". أتلذذ ببرودة الأرض وأتطلع إلى السماء. ما عادت عيناي تبصران غيرها. لاشيء آخر يبهج نظري. أرى ما لا تراه جدّتي. أمّي تحلق بجناحيها. أشير لها بيدي وأبتسم، فتبادلني الابتسام. تخرجني جدّتي من حلمي، فتربت على

رأسي وتتحسس جبهتي ثمّ تناولني الخليط وتبتسم.

في المساء، يجيء الطبيب الهندي. يفحصني مبتسما ويشدّ جلد يدي وبطني، ثم يمنحني كأسا ويطلب مني أن أملأه بالبراز. تسأله جدّتي عن أحوال الناس فيطمئنها بكلمات مختصرة ومتقطعة، فتدرك أنه لا يرغب في الحديث، لكنها لا تتوقف عن سؤاله. تنتزع منه الكلمات كما تُنتزع أضراس الفم. تتنهد حين تسمع ما يرضيها. وتعيد السؤال للاستفهام حين لا يرضيها الخبر.

تقول جدّتي:

– أخبرني، سمعت الليلة أصوات عربات ورجال، وتوقعت أنّ حملة الحجر قد عادت.

يبتسم. ثمّ يمص شفتيه:

– لا.

ينقل بصره من جدّتي إلى العتبة. ثم يتطلع إليّ، كأنّه يبحث عن منفذ. فتدركه جدّتي بسؤالها:

- لابدّ أنّ الأصوات والعربات قد عادت لشيء خطير؟.

- أعتقد أنّ العربات جاءت لتحمل شخصا ما.

- قد يكون ذلك.. لكنها لم تتوقف طوال الليل.

- لقد تمكنا من السيطرة على العدوى.

- كيف؟. هل يعني هذا أنّه بإمكاننا مغادرة البيت؟.

- جاءت الأوامر بتجميع المرضى في المستشفى القديم، حتى يتلقوا العناية الكاملة.

تتفحصه جدّتي من أخمص قدميه إلى رأسه، ثم تنظر إليّ. فيستدرك مضيفا:

- لا. لا ننقله. إنّه يتماثل للشفاء.

في اليوم الخامس أستيقظ على قرقرة معدتي، فأتطلع إلى حبات الشكولاطة التي تراكمت عند العتبة وأعدّها (عدد الحبات يعني عدد الأيام التي مرت بعد وفاة أمّي). أشتهيها. تزداد قرقرة المعدة فتتحول ألما في بطني. أشعر بتقلصات عضلاتي. أتحرك على الأرض. أمدد أطرافي ثمّ أطويها محاولا أن أسيطر عليها. أتنفس بعمق. أمرر راحة يدي على بطني. أطقطق أصابعي. أحرك رأسي يمينا وشمالا لتحرير رقبتي فينتابني دوار. أنخرط في البكاء. تسألني جدّتي عمّ يبكيني، لكن بكائي يزداد حدّة. تضمني إليها. تمسح دموعي وتواسيني بكلمات لا أفهمها، ولا تتوقف عن سؤالها. وتنخرط هي الأخرى في البكاء.

أصحو. أفرك عيني. آثار الدموع على خدي. لا أعرف كم نمت. أتطلع إلى سمائي وأحاول أن أنخرط في حلمي. غيمة تحجب أشعة الشمس. تبدو أنها تتحرك. أتابعها في حركتها البطيئة. وأنتظر أن تنقشع ليصفو لي الجوّ.

أتوق لرؤية أمّي.

يتملكني إحساس غريب. أنتبه. فاكتشف أنّ الغيمة ثابتة لا تتحرك. ماذا لو بقيت الغيمة في مكانها إلى الأبد؟. يصيبني الفزع. أبذل جهدا لأنسى الفكرة. ثم أحاول إقناع نفسي بخطئها. لا يمكنني أن أتصوّر سماء بلا رحمة. السماء التي تؤوي الجنّة.

***

لابدّ أنّ خطأ ما قد وقع؟. أتفحص كل ما حولي. كم قضيت ممددا على هذا السرير؟. أتفحصه، فأكتشف أنّه أكثر قذارة من سريري الأول. أخمن. هل هي طريقة أخرى من طرق المكتب الثاني؟. هل هذا هو العقاب الّذي وعدوني به؟. الموت البطيء؟ الموت الذي تتمناه وتحلم به، فتنتظره في كل لحظة لكنه لا يجيئك. أدرك أني لست في المكان الذي كنت فيه.

أجد نفسي أفكر فيها. أنتظر طقطقة أقدامها (أجهد

سمعي لأمّيز صوت وقع قدميها من بين أصوات كثيرة حادة ومختلفة). أتطلع إلى الباب وأبتسم. أنتظر أن تطل. أن تبتسم فتقوس عينها اليسرى. أفرك عيني من غبشهما (أكتشف أن يديّ غير مقيدتين إلى السريرِ فأتفقد كل أعضائي).

يطول تطلعي إلى الباب فلا أرى غير وجوه غريبة بلا ملامح. تدخل وتخرج. لا تأبه بي. أحاول أن أثير انتباه أحدهم (حليق الرأس ويلبس مئزرا أبيض عليه بقع حمراء صغيرة). أبحلق فيه جيدا. يقترب مني. يقف عند قدميّ. يبادلني نظرات فاحصة. أقول:

– أخبرني حفظك الله، أين أنا؟.

– أين أنت؟ هه هه..

يهز رأسه بين كتفيه. يتركني. يحيرني جوابه. سؤاله. وابتسامته العريضة الّتي تعبر عن سخرية ما. يحق لي أنا الآخر أن أضحك ساخرا. لكن مِن مَن؟. من نفسي الّتي لا تعرف أين هي؟ أتصوّر أن لا أحد هنا يعرف أين هو. يبدو لي الأمر سخيفا لكن ممكنا. أنخرط في موجة من الضحك. أضحك. أضحك وأتفحص هذه الوجوه الّتي أمامي (على الأقل الوجوه

الّتي يمكنني رؤيتها من موضعي على السرير)، لكني لا أثير انتباه أحد. يضيع ضحكي وسط ضجيج أصوات غير متناسقة فاقدا كلّ معنى.

يعود الرجل حليق الرأس رفقة آخر في يده حقنة. يتطلعان إليّ. يقفان أمامي. يبتسمان. يقول الحليق:

– هل عرفت أين أنت؟.

أتطلع إليه مشدوها. أنظف صوتي وأقول:

– لا.

– ستعرف. لا تقلق.

يقوس حاجبيه. يمسك ذراعي اليسرى ويشمّر عن ساعدي. يتقدم الآخر ويحقنني دون أن ينظر إلي. يترك ذراعي تسقط على السرير. يقول:

– ستعرف بعد أن تستفيق.

أتابعهما بعيني. يتبادلان النظرات. يقهقهان. ثم يغيبان وراء الباب الذي يظل مفتوحا.

أصحو منجرفا من حلم محموما. أتصبب عرقا. أدرك

أن الوقت ليل. ضوء خافت في الممر. أمسح عرقي بكمّي قميصي. أتنهد. أحاول أن أتجاهل ألم أسفل البطن. أن أؤجل الأمر. يزداد الألم حدّة. أهمّ بالنهوض، فلا أستطيع. لا أتحكم في أطرافي. قدماي لاً تستجيبان. ممدتان. أحاول تحريك أصابعهما. فلا تستجيب هي الأخرى. أستسلم. أشم رائحة بول. أحسّ بشيء دافئ يسيل بين فخذي.

أتذكر. أتذكرها. تجلس على حافة سريري مبتسمة (تعجبني ابتسامتها حين تقوس عينها اليسرى). تدلك يديّ المقيدتين إلى السرير. تقول:

– عليك أن تحرك أصابعك حتى لا تتورّم يدك.

أجيبها بابتسامة خفيفة وحركة بطيئة لرأسي، مستسلما للرعشة التي بدأت تسري في كامل جسدي. تسحب يديها (ربما تكون قد تفطنت لما أحس به). تتطلع إليّ. ثمّ تقول مؤكدة:

– بإمكاني أن أفرض عليهم أن يفكوا قيدك.

أتفحص وجهها مندهشا. تستدرك بعد أن مصّت شفتيها:

- لكني أبلغتهم أنك لازلت تعيش حالة اكتئاب، وبإمكانك أن تعاود محاولة الانتحار.

أهز رأسي موافقا. ذلك ما أفكر فيه. أتطلّع إلى مصباح القاعة. أبحث بين أشعة الضوء عن وجه أمّي. أريد أن أعدها أني سألحق بها.

تباغتني:

- أعرف أن تجربة الانتحار قاسية ومريرة خاصة إن فشلت، لذلك أريد أن تظلّ هنا ليومين آخرين تحت المراقبة الطبية، ولتستريح وتفكر مليّا فيما حدث والأفضل أن تفكر فيما سيحدث.

***

أستفيق محموما. جسدي يتصبّب عرقا. أحس بالاختناق. أترك فراشي المبلل عرقا. أجلس بشكل قط محاولا التخفيف من عبء العرق وباحثا في نفس الوقت عن الهواء.

تراودني فكرة التحوّل إلى قط. ماذا لو مُسِخت قطا؟

(أتذكر جدّتي وهي تروي لنا في إحدى حكاياتها الليلية

الطويلة، أنّ القط خُلق إنسانا، لكنه اغتسل بالحليب بدل أن يشربه أو يتقاسمه مع طفل أنهكه الظمأ، فكان عقابه عن جرمه أن مسخه الله قطا).

أتخيّل.

أتسلق هذا الجدار المبني بالطوب الأحمر ثم أفتح الباب من الخارج (منذ وضعت العلامة X على باب المنزل وُضع قفل من الخارج مفاتيحه مع الحراس). أخلّص جدّتي من الحجر الّذي هي فيه رغم أنها ليست مصابة بالعدوى.

أتحرك باتجاه جدّتي على أطرافي الأربعة. أتوقف عند رأسها. أرقبها. تنام مستلقية على ظهرها. وجهها كئيب متعب. يبدو مصفرّا. أدقق النظر. عيناها غائرتان. أسفلهما جيوب سوداء. على جبهتها استقرت حبات من عرق. أحس بزفراتها ساخنة. تعجبت حين تأكدت من نوم جدّتي، ولم أسمع شخيرها. أطوف بها على قوائمي الأربع. فمها مفتوح. تخرج لسانها وترطب شفتيها دون أن تفتح عينيها. أقدّر أنها تنام نوم الانهماك.(هي المرة الوحيدة التي أرى فيها جدّتي نائمة

منذ موت أمّي).

صوت يزحف.

وقع أقدام يقترب من الباب. أرفع رأسي (كما يفعل القط) لأتمكن من التقاط الصوت جيدا. تحول ببصري بين الباب وجدّتي. وقع الأقدام يقترب أكثر فاقترب أنا الآخر من الباب (لم أغير بعد من وضعيتي). أسترق السمع. أتسمّع وأخمن. ستة أقدام تتثاقل الخطى، ثم تتوقف. مفتاح يدور في القفل. من يفتح الباب في هذا الوقت من الليل؟. أدير وجهي نحو جدّتي فاكتشف أنها بدأت في الشخير. أشعر بقشعريرة تجتاح جسدي فألجأ إلى جوار جدّتي. يرتفع شخيرها. أرفع رأسي إلى السماء آملا أن أرى وجه أمّي، لكنّي لا أرى غير ظلام حوشي. أرتبك لكني لا أغير من وضعية جلستي. أتأهب. ينفتح الباب بهدوء. يظل مفتوحا لثوان ثمّ يطل وجه. يقطب عن حاجبيه ويختفي. يطلّ وجه آخر من جديد مبتسما هذه المرة. وبهدوء يضع سبابته على فمه مشيرا لي أن ألتزم الصمت. يدخل مشيا على أصابع قدميه. يتبعه آخران.

تتسمر أعينهم فيّ لحظات ثم يتبادلون النظرات. ترسم شفاههم ابتسامات تعجب (أدرك أنّ وضعيتي تثير استغرابهم). يتهامسون ثم يغادرون"الحوش" في هدوء. أغمض عينيّ وأتنفس بعمق للتهدئة. أمص شفتي بطرف لساني محاولا ترطيب فمي الجاف.

أعود للدوران حول جدّتي. أجد في ذلك تسلية لي وتمضية للوقت. أحاول أن أنسى آلام البطن والرأس. تنتابني رغبة جارفة في المواء. أنظف حنجرتي. أموء بصوت منخفض. أتبعها بعدّة مواءات. أتسمع لصداها. تعجبني. أواصل الدوران والمواء. تستيقظ جدّتي لاهثة. تتفحصني. أتوقف عن الدوران وعن المواء. تفرك عينها بيديها. تضمني إلى صدرها وتتحسس جبهتي ثم تقبّلها. أحس بدموعها على خدي. أبعد رأسي قليلا عنها وأتطلع إلى وجهها. إنها تبكي في صمت.

أفكر في سؤالها عن سبب بكائها، ثم أفكر في إخبارها عن الرجال الثلاثة الذين دخلوا "الحوش" للحظات ثم غادروه، لكن ضمة صدرها أغرتني بالنعاس فاستسلمت له.

أستفيق مرة أخرى على صوت جدّتي وهي تصرخ في وجه "الروخو" الّذي كان يتقدم ثلاثة من رجاله بمن فيهم الطبيب الهندي، الّذي كان يزورني يوميا ويأخذ معه عينة من برازي الّذي كان لونه يتغير يوما بعد يوم، فيبتسم ويبشرني بالعافية والنجاة وعدم اللحاق بالمرضى الآخرين الذين جمعتهم الدولة (يقصد المكتب الثاني) بالمستشفى القديم.

لم تتوقف جدّتي عن صراخها في وجه "الرّوخو" الّذي ظلّ واقفا يحاول أن ينظر يمينا وشمالا هاربا من وجهها. وبدت يداه لا تلبثان على موضع، فإذا تشابكتا إلى الخلف لا يقوم بهما المطاف حتى تتجمعا فوق بعضهما البعض إلى الأمام على الصدر، أو افترقتا في حركة خفيفة استقرت إحداهما على الخصر وفي غالب الأحيان تكون اليسرى، داعبت الأخرى شعر الرأس أو الجبين.

لا حركة العينين ولا اليدين كانت تعبر بحق عن حالة "الروخو" الّتي كان فيها وهو يواجه صراخ جدّتي الّذي لم يفهم منه الشيء الكثير، وهو الّذي اعتاد أن يصرخ في وجوه الآخرين آمرا أو ناهيا ولا يعنيه الخطأ من الصواب في شيء،

كما أخبرتني جدّتي بعد ذلك، مضيفة أن ما أحرج "الروخو" كثيرا ولم يتمكن من نسيانه هو وجود ثلاثة من معاونيه ظلوا وراءه واقفين مشدوهين غير مصدقين لما يحدث أمامهم، فاكتفوا بتبادل نظرات سائلة عن صمت قائدهم أمام عجوز لم تترك له فرصة الكلام رغم محاولاته المتعددة.

***

أصحو في الليل على مواء قطة. بدا الصوت لي أليفا. صوت سمعته من قبل. أتتبع مصدر الصوت لأحدّد مكان وجود القطة. برأسي الثقيل تدور فكرة أن أموء (كما كنت أفعل دائما) لتعرف القطة أنّي أسمعها. أبتسم تعبيرا عن فرح يخالجني كلّما سمعت مواء قطة. مواء يعيدني إلى طفولتي. إلى النّبش في ذاكرتي. ذاكرة أتعبتها أحداث وفراغات زمنية متعددة كصفحات بيضاء بين دفتي كتاب. أحيانا أتلهى بتخيّل أحداث لملئها. وعند نهاية كل حدث أُصاب بالخيبة. وما الذاكرة إن لم تكن خيبة وانهزاما؟.

فجأة جاءني الصوت ضعيفا غير متناسق. أحاول رفع

رأسي لأسترق السمع. خلف الجدار وقع أقدام غير بعيد عنها. ترتبك (تعبر عن ذلك بمواء اختلطت به فراغات وتشنجات فخرج محشرجا). ثم توقف المواء.

قلقا ومتوترا، أحاول أن أتسمّع من جديد، لكن صمتا جنائزيا يعم المكان. سكون مثير لا يليق بمصحة للأمراض العقلية (لا أدري كم مضى على وجودي بهذه المصحة، فبعد أن يحقنني حليق الرأس بحقنته اللّعينة أفقد معها كل معنى ومفهوم للوقت، لكنها المرّة الأولى التي ألحظ فيها هذا السكون المثير).

عاودت القطة مواءها. استجبت لها دون تفكير. تبادلنا المواء. لم يكن المواء عشوائيا وعديم كل دلالة، إنّما كان مواء للتآنس (على الأقل هذا ما شعرت به).

مع الصبح (أتبين ذلك من خلال النافذة التي تركت بعض أشعة الشمس تتسرب باهتة) يدخل الرجل الحليق مسرعا وفي حالة شديدة الغضب (استنتجت حالته هذه من طريقة فتحه للباب). يتفحصني جيدا ثم يخرج. يعود من جديد

برفقة الآخر وبيده حقنة. يغرزها في ساعدي. يهز رأسه يمينا وشمالا ويعصر شفته السفلى بشفته العليا ولم يقل شيئا. يتطلّع للحليق الرأس، ثمّ يغادران القاعة دون أن يلتفتا.

يصلني مواء القطة متسائلا ومستفسرا، لكني لم أستجب له (أو بالأحرى لم أقدر على الاستجابة). صار المواء يعبر عن حالة يأس وقلق، ثم سرعان ما فقد كل معنى.

استسلمت للنعاسة ,أستفيق لكني لا أقدر على فتح عيني، مثلما لا أقدر على تحريك أي عضو من أعضائي. أفكر مليا في حالتي هذه. حالة ما بين الموت والحياة. استعيد صوت جدّتي وهي تؤكد: "النوم أخ الموت". لكني لست نائما. ولا مستيقظا. أنا بين بين. جسد نائم وعقل مستيقظ. حالة تزيد من عبئي وتعبي. فقط لو أستطيع أن أقدّر الوقت, أتذكر, فلا أجد غير فراغات رغم أني أحاول أن أربط الأحداث المتباعدة (تعلمت أن أقدر الوقت بالأحداث وليس بالعدّ). يستعصي عليّ استرجاع كل شيء فاستسلم مستهزئا من حالتي الّتي أنا عليها وفيها. كما يستعصي عليّ إرجاع نفسي إلى الزمان الّذي أنا فيه الآن (أمّا المكان فهو القاعة

الثانية بمصحة الأمراض العقلية، والحق أني لست متأكدا من ذلك فقد أكون قد نُقلت إلى مكان آخر بعد حقنة حليق الرأس وصاحبه).

ليس من السهل على أحد أن يعيش في اللازمان. في الفراغ. بين الاحتمال والافتراض. بعيدا عن كلّ حقيقة. فما معنى الحياة إن لم تكن بحثا عن حقيقة؟ عن يقين؟ وهل هناك غير الموت يقينا؟ اليقين الّذي استعجلته.

أفكر في حياتي الآنية محاولا أن أخرج من حالة الفراغ، فأصطدم بسهو عقلي يعيدني للتفكير بالقطة. أبتسم فرحا بذاكرتي الّتي لازالت تحتفظ بها. لكن فرحي لا يدوم إذ يفاجئني سؤال فيُصيرني إلى الشك. متى كان سماعي لمواء القطة؟ أحاول أن أجيب جازما: البارحة ليلا. ثم محاولا التخفيف من عبء السؤال، أقول لنفسي أن ليس مهما متى كان ذلك، بل المهم أنّ ذاكرتي تحتفظ بها.

مقتنعا، وليس متيقنا من شيء، أنّ عقلي ينفتح كل يوم على أسئلة أكثر تعقيدا وألما.

منبطحا على الأرض أعضّ كمّ قميصي بشدّة، محاولا نقل آلام بطني إلى أسناني وكأنما في نفس الوقت آهات، أرفض أن تخرج فتسمعها جدّتي، الّتي تنظر إليّ بطرف عينيها. أخفي وجهي بذراعي وأضغط بأسناني بشدّة أكبر، لكن أنينا حادّا صدر من داخلي وخرج رغما عنّي من بين فجوات أسناني. أشعر بأمعائي تتلوى وتلتف حول بعضها، فلا أجد غير الالتواء بحثا عن التهدئة. لكن الأنين يتضاعف. تضرب قدماي الأرض ويتحرر كمّ قميصي فتخرج آهات متتالية (أدرك بعدها أن كتم الألم أصعب ومؤلم أكثر من الألم نفسه).

خطوات جدّتي متعثرة، لكنها تصل إليّ وتضمني بين ذراعيها (أشعر بضربات قلبها المتسارعة)، تتفقد وجهي وتمسح جبيني. تطلق تنهيدة عميقة، ثمّ تتمتم. أحاول بلطف أن أتحرّر من بين ذراعيها لكن ضمتها تزيدني التصاقا بها فاستسلم مرتخيا.

خطوات سريعة وخفيفة في الممر الخارجي تقترب من "الحوش". تنفتح أذناي. وقع القدمين يقترب. أستدير ناحية

الباب وأنتظر. تتفطن جدّتي لصرير مفتاح يدور بداخل القفل، فتحررني بلطف وهي تمسح على شعري. يدخل دون أن يكلف نفسه عناء دق الباب. يقف وسط "الحوش" لاهثا. مبتسما. ابتسامته العريضة جعلت جدّتي تنتظر أن يقول شيئا يفرحها. تغلّبَ على لهاثه ومدّ يده اليمنى الّتي كانت بها ورقة مطوية قائلا:

. شهادة الطبيب الذي يصرح فيها بشفاء الولد.

. هل نحن أحرار الآن. تقول جدّتي بعد أن اخفت ابتسامتها.

. نعم.. شهادة الطبيب وقد أمضاها "الفسيان" بنفسه.

. أخيرا.. وهل شفي الولد؟

. بكل تأكيد..وسنمسح الآن العلامة من مدخل "الحوش".

قال ذلك مبتسما وخرج مسرعا كأنه يخشى أسئلة

جدّتي، الّتي ظلت تحدق فيّ ونسيت مبعوث "الروخو".

***

يقف أمامي منذ الساعات الأولى من هذا الصباح البارد ساخطا في وجهي، يأمرني بالوقوف، لكن دوارا ينتابني كلّما حاولت أن أتحرك من سريري، فيتهاوى جسدي إلى الخلف عائدا إلى السرير الّذي لازمته أياما (لم أتمكن بعد من حساب عدد الأيام التي قضيتها ممددا عليه).

بعد عدّة محاولات يضع يديه على خصريه ويتفحصني. رأسي وظهري على السرير، أما أطرافي السفلية فظلت معلقة في الفراغ، فلا تلمس الأرض لأتكئ عليها، ولم أستطع إعادتها إلى فوق السرير. يهز رأسه، ثمّ يقترب مني حتّى أشم رائحة فمه (رائحة بيض مقلي)، وبكلتا يديه يجذبني من كتفي ولا يتوقف عن سبّي وشتمي، لكني لا أستطيع أن أتحكم في قدميّ فأهوي على الأرض.

ملقى على الأرض فاقدا كل قدرة على الحركة تصلني ركلات قدمه اليمنى وهي تقذف مؤخرتي الّتي تقلّصت عضلاتها دون وعي منّي. مُجهدا رقبتي أستدير برأسي ناحيته وأتفحص وجهه. ينظر كلانا للآخر. يتوقف عن الرّكل. ينحني قليلا ثمّ يقول لي بصوت خافت مهددا وواعدا:

- سترى.. تريد أن تكون بطلا!

يعتدل واقفا ثم يركل وجهي بكعب قدمه.

أستفيق من غيبوبتي مخنوقا، لا أدري كم من الوقت مرّ عليّ وأنا على الأرض. حشرجة تسدّ تنفسي. أنظف بلعومي بما تبقى من ريق في فمي، فأكتشف أن أنفي مسدود. أحاول تنظيفه بأصابع يدي، لكني حين ألمسه أتألم فأعدل عن الفكرة وأستنجد بفمي للتنفس. أتفحص أصابعي وقد لطخها دمّ متخثر. لابدّ أن غضروف الأنف قد تكسر. هي ليست المرة الأولى التي يصاب فيها أنفي. في المرات السابقة كان الأعوان بالمكتب الثاني يجعلون منه هدفا للكماتهم القوية فغيروا من شكله (كان طويلا ومعقوفا فصار مفلطحا

وغليظا).

أحنّ إلى الماء. أمص شفتي وأمرر لساني في فمي الجاف. أعيد المحاولة عدّة مرات لكن لساني يلتصق بالشفتين. أفتح فمي عن آخره طمعا في هواء بارد لترطيبه. صعوبة التنفس جعلتني ألهث. وفمي يصدر صوتا محشرجا. يتقلب رأسي يمينا وشمالا بحثا عن وضعية قد تساعدني وتنقذني من حالة الاختناق. متأكدا من أن لاشيء يخرجني من حالتي الّتي أنا فيها غير الماء. شربة ماء. تتلمس يداي الأرض الباردة. تختبران قدرتهما على رفع الجسد. يرتفع الرأس عن الأرض قليلا، لكن متحسرا أدرك أنّ القدمين بهما عطل ما. أستسلم. ألهث في انتظار لاشيء. أتساءل بداخلي عن قدرتي على التحمل. إلى متى؟ وبداخلي أستدرك أنّي مجبر على ذلك. فلا شيء أعرفه وسكت عنه. أعرف أنهم لا يصدقونني، لكني لن أقول ما يريدونني أن أقوله.

***

أستلقي بين ذراعي جدّتي الّتي لم تع بعد ما تفعله، بعد أن حررتنا شهادة الطبيب والّتي صادق عليها "الروخو" "الفسيان" بنفسه. تتساءل حائرة:

– ماذا نفعل الآن؟.

أرفع رأسي وأنظر إليها متحيرا من سؤالها الّذي لم أنتظره ولا أملك إجابة عليه. لكني أدرك أنّه سؤال يخرج من رحم المأساة التي تعيشها. أستفهم، محركا حاجبي وضاغطا بشفتي العليا على شفتي السفلى.

متحسرة تقول جدّتي بصوت خافت:

– لا شيء عاد كما كان.. ولا نملك إلاّ الصبر.

تصيب وجهي دمعات ساخنة لكني لا أجرؤ على الحركة (وأنا بين ذراعيها) لمسحها. أفكر في صياغة سؤال عن سبب هذه الدموع الّتي تنزل بعد أن تحررنا لكني أحجم عن ذلك خوفا من أن يفتح سؤالي جروحا أخرى، فأكتفي بالنظر إلى وجه جدّتي الذي تتغيّر ملامحه من لحظة إلى أخرى.

تعاودني آلام البطن الحادة بقرقرة معدتي فأنسحب من بين ذراعيها. أبحث عن وضعية تسكّن الآلام. أتكوّر على الأرض. أرفع رجلي. أتمدد على بطني ثم على ظهري وعلى جنبي. أُقرفص واضعا رأسي بين ذراعي وأضغط. أضغط على رأسي رغم أنّ الآلام ببطني. تزداد القرقرة وتزداد معها الآلام. أحس أنّ مصارين أسفل بطني تتقلص، وأنّ صدري يختنق. أجهد نفسي لأتنفس. فاتحا فمي أبحث عن الهواء. أفكّر في الاستنجاد بجدّتي، لكن ما عساها تفعل؟ أخشى أن تعيدني للطبيب الّذي حتما سيأخذ عينة من برازي لتحليلها، مثلما كان يقول دائما، وقد يكتشف أنّي لم أشف بعد.

دافعا قدمي نحو الباب بخطوات غير متزنة وفاتحا فمي أبحث عن الهواء، تصدني جدّتي عند الباب، وتسألني:

- إلى أين؟

- إلى الخارج.

كاتما لهاثي وخاشيا أن تكتشف اختناقي وآلامي المتصاعدة من البطن، أجيبها وأمضي إلى الشارع. تسبقني

وتقف قبالتي. تتلاقى أعيننا. أقاوم نظراتها الباكية والّتي في نفس الوقت تظهر لي عدم اقتناعها بكلامي، فأقول مستفسرا:

- لم يمسحوا العلامة بعد؟

- لا يهم.. قد يمسحونها فيما بعد.

تقول وهي تتفحص كامل وجهي بعد أن اعترضت طريقي بجسدها.

- أخشى أن يقفلوا علينا من جديد؟

- لا تخشَ شيئا، ما دامت معنا شهادة الطبيب التي تبرئك من المرض.

كدت أن أصرّح لها أنّي لازلت أشعر بالآلام رغم تلك الشهادة.

أستفيق على هزات خفيفة على كتفي. أستدير برأسي شمالا لأتعرّف على هذا الّذي ينحني بالقرب مني ويحاول إيقاظي بلطف. لم أتعود على هذا اللطف لذلك خمنت أن

يكون ذلك من قبيل الخداع. وضعت كفي على وجهي لأحمي عيني. أعرف أن أنفي مكسور ويؤلمني ذلك لكنه لا يقلقني بقدر ما يقلقني خوفي من أن أفقد بصري بضربة قوية. أريد أن يظل سليما. شاهداً على ما يحدث. العين فقط بإمكانها أن تفعل ذلك وتنقل كل شيء.

أهمس، وأراقب بنظري من بين أصابعي:

– من؟

– لا تخشَ شيئا.

يقول بعد أن تراجع قليلا إلى الوراء كأنّه أدرك خوفي. لم أجد صوته مألوفا لديّ. والمهمّ عندي لحظتها أنّه لم يكن صوت الحليق الرأس ولا صوت الرجلين. وضعت كفيّ عن وجهي. فانحنى قليلا وشدّني من ذراعي بلطف وساعدني على النهوض قائلا:

– حاول أن لا تكون معهم سلبيا.

لم أفهم ما يقصد بكلامه الذي بدا لي غريبا كأنه يتحدث بلغة لا أعرفها، فقوست حاجبي متسائلا، وأمعنت

النظر في وجهه. كان وجها غريبا عليّ. أسمر. تكاثرت التجاعيد على جبهته وتحت عينيه رغم أنّ ملامحه تقول أنّه لم يتجاوز الأربعين بعد. لحيته سوداء كثيفة لم يمسسها لا المشط ولا الموسى زمنا.

- إنك لم تغادر سريرك منذ أن جاؤوا بك. حاول أن تتمشى قليلا.

متأكدا أني أصغي إليه، تجاهل سؤالي غير المعلن، واصل حديثه هامسا:

- في حالتك هذه كان عليك مقاومة سمومهم بالمشي.

- سمومهم؟

متفاجئا، أتوقف وأتساءل. لا يعير تساؤلي اهتماما فيكتفي بابتسامة ونظرة ثاقبة ثمّ هزة خفيفة على كتفي لمعاودة المشي.

أعود للمشي مرتكزا على يده اليمنى المتصلبة تحت

إبطي الأيسر حتى لا أفقد توازني. يستدرك قائلا:

– أقصد تلك الحقن.

هل أعترف له أنّ تلك الحقن صارت تريحني. أنتظرها كما ينتظر الرضيع ثدي أمّه. معها أدخل في سبات عميق. لست أنا ولست آخر. ليس لي ماض ولا مستقبل. مجرد كائن حيّ. يتنفس لاإراديا. يرى ولا يعي. وقليلا ما يأكل دون شهيّة. أم أعترف له أنّي أبحث عن النسيان. عن محو ذاكرتي. وأحيانا أفكر أن أتخلص من إنسانيتي. من عقلي.

يتوقف. يواجهني بعد أن نزع يده من تحت إبطي:

– أعرف أنّك لا تثق بي..

– ماذا تريد؟

أقول مواجها عينيه. يبتسم ثم يخفض رأسه قليلا كأنه يتفحص قدمي الثابتتين على الأرض، ثم يقول متردّدا:

– لاشيء.. لا أريد منك شيئا، فقط أحاول مساعدتك.

***

أقف عند نهاية الشارع وأتطلّع. أبواب ونوافذ المنازل مغلقة. لم ينج مدخل من رسم العلامة X. هدوء جنائزي يغلّف المكان. مندهشا ممّ أرى، أتساءل بداخلي، أين ذهب الناس؟. أين سكان الحيّ؟. هل ماتوا؟. هل قضى عليهم المرض؟ بدت لي الفكرة غريبة ومستحيلة. ومحاولا إبعادها من رأسي، أهرول إلى ساحة الأبطال مقتنعا أنّ أصدقائي هناك يتحدّون المرض والموت. ينظمون بطولاتهم، أو يروون أحداث المرض والحجر وقد حوّلوها إلى حكايات، وينتظرونني. قد أزداد بطولة في عيونهم حين يعلمون أنّي نجوت من الموت رغم تلك العلامة وبعد أكثر من ثلاثة أسابيع من الحجر. قد يختلقون حكاية شفائي. حكاية صراعي مع الموت. أعرف أنّه علينا دائما نحن الصغار أن نختلق الحكايات والبطولات لنحلم ونحيا.

أصِل ساحة الأبطال. لا شيء يبهر لتراه. أشعر بالخوف. القلق. أتوسط الساحة. لا أحد. أين هم؟. يزداد خوفي. أخشى أن يكون الموت قد أخذهم. أرغب في البكاء. الصراخ. ولمَ لا المواء. ربما قد أجد من يواسيني في لحظتي الحزينة

هذه. أنسحب من وسط الساحة جنوبا إلى شجرة الخروب. ألجأ تحت جدعها الضخم. ثم لاهثا أتسلّقها. أتفحص المكان من أعلى. لا أرى شيئا. أبعث مواء خفيفا لاستطلاع المكان. فينكسر المواء مع نسمات الهواء المنبعث من جهة الشمال. أنتظر بعض الوقت وأرسل مواء عميقا. حزينا. لكن، متقطعا يعود إليّ صداه. أشعر بالحزن مثلما كنت أشعر به وأنا حبيس الدّار مع جدّتي. لا شيء تغيّر وأنا حرّ. حرّ بشهادة طبيّة وافق وصادق عليها ضابط عسكري. ما معنى أن تكون حرّا لكن وحيدا؟ أفكّر. ثمّ أجزم، أنّ الحريّة تفقد كلّ معنى وقيمة في غياب من نحب.

أعود للمواء. ومعه أتطلّع إلى صداه. أتفنّن فيه رغم صوتي المحشرج. بدا لي صدى صوتي يرسل خلفيات صوتية تتكرّر وتتعدّد. تبدأ قريبة من مسمعي ثم تتباعد وتتضاءل مخلّفة فراغا يعيدني إلى حالتي الأولى. مرتبكا، أخمّن وأتساءل متردّدا، إذا لم يسمعني أحد بعد؟.

***

أتجاهله وأستدير بكامل جسدي. خطواتي غير متزنة. أفقد توازني لكن يده الطويلة أعادت توازني. نظرت إليه وفي نيتي شكره، لكنه تجاهل عيني وظل ينظر إلى حركات قدميّ على الأرض.

- لن يتركوك قبل أن يخربوا عقلك وجسدك.

قال دون أن يرفع عينيه عن الأرض. تجاهلت نصيحته الّتي أعرفها، وتابعت مشيي مستندا على يده الّتي تحت إبطي. لكنّه توقف عن المشي بعد بضع خطوات فقط، فاضطررت للتوقف. نظر إليّ مليّا ثمّ قال مستفسرا ومشفقا:

- ألا يتعبك جسدك؟

لست مضطرا لإجابته فجسدي يخصني أنا وحدي، لكن إلحاح نظره يتعبني حقّا فتصنعت شيئا من الحسرة وقلت بصوت خافت:

- بطبيعة الحال يتعبني وها أنت تساعدني على حمله.

- أنا لا أقصد أن تبوح لهم بما تعرف..

متأكدا من كلامي قاطعته:

- لكنّي حقيقة لا أعرف شيئا.

لم يبال بكلامي. فاستدركت:

- حقيقة لا أعرف لمَ أنا هنا وما فعلت.

ابتسم وتفقد بعينيه من حوله ليتأكد أن لا أحد يسمعه ثمّ همس:

- تعجبني.

أتفرس وجهه إذ أحسست أنّه يستفزني ساخرا أو يتقرب منّي بهذا القول، فتساءلت:

- وفيم أعجبك؟

لم يستسلم. مبتسما ومقوّسا عينه اليسرى قال مدافعا

:

- تعجبني، لأنّك لا تثق في أيّ أحد.

لم أجبه ولم أعلّق على كلامه. واكتفيت بهزّ رأسي متعجبا من استنتاجه، الّذي بدا لي في غير محلّه. لكنّه لم يعبأ بنظرتي الساخرة ولا بحركة رأسي البطيئة، الّتي ظننت أنّها ذات معنى، فسألني متحيّرا:

- هل بدؤوا باستجوابك؟

- لا. ليس بعد، منذ مجيئي إلى هنا.

- يعني أنّهم استجوبوك من قبل.

- ذاك ما أعتقد.

تطلّع إليّ متفحصا وهو يسمع جملتي الأخيرة، كأنّه يريد أن يتأكد أنّي لا أكذب، ثمّ فاجأني:

- كيف؟ هل استجوبوك أم لا؟

ليس لديّ أدنى فكرة عمَّا يريده هذا الشخص الّذي أمامي ويستجوبني بطريقته الخاصة، ومع ذلك لم أحاول

إيهامه أن طريقته هذه تزعجني.

- لا أذكر.. إنّي لم أعد أذكر تفاصيل ما حدث لي..

قوّس حاجبيه. ضغط بشفته العليا على شفته السفلى. ثم فتح فمه وهزّ رأسه عدّة مرات متحسرا وقال:

- يبدو أنّهم بدؤوا بنخر عقلك قبل جسدك.

لم أعلق على ما قال، لكنّي في نفسي أعترف أنّهم فعلا بدؤوا بنخر عقلي قبل جسدي، ويريحني ذلك.

***

أتنهد. متأسفا أقتنع أن لا أحد سمعني رغم المواء الّذي دام وقتا طويلا وأتعبني. متأكدا من أنّ الحيّ خال من سكانه أترجح بين أغصان شجرة الخروب حرّا طليقا. تراودني فكرة القفز. القفز كما القطّ حين يشعر بخطر ما. أنظر إلى أسفل. أقدّر البعد ببضع خطوات. خمسٌ أو ستّ. أتسلّق من جديد لأبعد غصن عن الأرض. ثم أنظر إلى أسفل. هل بإمكاني

القفز؟ هل تتحمّل قدماي جسدي عند ارتطامهما بالأرض؟ أتلمّس قدميّ بيدي اليسرى وأمسك غصنا بالأخرى خوفا من أن أفقد توازني وأسقط. هل أخاف السقوط؟ متأكدا، أردّد بداخلي أن السقوط ليس قفزا. لكن، ماذا لو سقطت؟ ليس بمقدوري أن أتخيّل ما يحدث إشفاقا على نفسي في وضع لم أرغب فيه ولم أرده. ليس خوفا من الموت أو حبّا في النجاة، لأنّ في كلتا الحالتين لن يُنسَب لك شيء.

منزعجا من أن أكون على هامش ما يحدث لي أنزل. أنزل ببطء شديد. هل عليّ أن أختار طريقة نزولي أم أسلّم أن ذلك قدري؟

عند جذع الشجرة أجلس على الأرض مسندا ظهري عليه. أحاول أن أفكر بقدري، لكن الفكرة تتملص من ذهني الّذي تشتّت وهو يستجمع أحداثا قديمة. لم تكن أحداثا ذات قيمة عندي لأتذكرها وأجهد عقلي بتعقّبها، لكنّي لا أستطيع محوها أو نسيانها حتّى وإن اعتقدت ذلك. ولا أنكر أنّي أحاول دوما أن لا أتذكر أحداثا لكنّي لا أقدر على ذلك. يتحتّم عليّ مسايرة تفكيري ومجاراته بعيدا عن كلّ تساؤل

وفهم. فلِم أغامر بتفكيري وعقلي لفهم أشياء لا أملكها، ولا أصنعها؟

الإنسان لا يملكِ شيئا لنفسه، تقول جدّتي كلما أصابها شيء. أبدا، لم أسأل جدّتي عن قيمة هذا الإنسان الذّي لا يملك حتّى نفسه.

***

مشدوها أستفيق على وقع أقدام. ليس حلما ما أسمع. أفرك عينيّ وأعدّل من جسدي على السرير. تمتدّ يداي إلى شعري تصففه. يسبقها عطرها. عطر برائحة الياسمين. لازلت قادرا على الشّم رغم أنّ أنفي مليء بدم متخثر. شمّ عطرها. لم تغيّره بعد.

تمرّ لحظات عصيبة. لحظات انتظار. أتساءل بداخلي شاكّا: لم جاءت؟ لابدّ أنّ شيئا مهمّا جاء بها؟ من أكون بالنسبة لها؟ ربّما جاءت لشيء آخر؟.. أحاول تخمين أسباب

وجيهة لهذا المجيء. أسباب تسعدني، لكني أقتنع أنّي لست سوى مريض حاول الانتحار ولم تنجح محاولته، على الأقل بالنسبة لها.

مراقبا الباب أنتظر متأكدا أنّ الوقع لقدميها والرائحة لعطرها. لا يمكنني أن أخطئ في ذلك. يغمرني فرح لرؤيتها قبل أن تُمسح ذاكرتي نهائيا.

أتهيأ لاستقبالها من على سريري. مقتنعا أنّه لا يهمّني سبب مجيئها بقدر ما يهمّني رؤيتها. أبتسم، رغم أنّي لست متأكدا من أنّ الابتسامة مرسومة على وجهي، مثلما لست متأكدا أنّها ستظل عليه.

تدخل الغرفة. يفاجئني وقوفها على العتبة. تنظر شمالا. تتطلّع للمريض قبالتي، الّذي بدوره يتطلّع إليها. أفكر في مناداتها، لكنّي أكتم أنفاسي حين أراها تستدير نحوي. أجهد شفتيّ على الابتسام. لاإراديا أومئ برأسي. تقترب منّي. لم تبتسم ولم تقوّس عينها اليسرى.

تقف عند رأسي ويداها على صدرها. تتنهّد، ثمّ تقول

ساخطة ودون تحية:

– ماذا قلت لهم بشأني؟

يفاجئني سؤالها. مشوش الرأس أنظر إليها مستفهما. فتعاود سؤالها بأكثر حدّة. أرفع رأسي قليلا وأتطلّع للمريض الّذي يقابلني. المريض الّذي كان منذ لحظات فقط يساعدني على المشي ويحثني عليه. وكنت أعجبه لأنّي لم أبح بشيء، ولا أثق في أحد.

– لم أقل شيئا.

أجيب ثمّ أتنهد. لم أفهم بعد ما تقصد وما تريد. لكنّي متأكد أنّي لم أقل شيئا.

– عليك أن تفهم أنّي لم أفعل معك غير واجبي.

– أنا لم أقل شيئا.

تتنهد وتضغط برجلها اليسرى على الأرض. (أدرك لحظتها أنّها لا تصدقني). ثمّ تتطلّع إليّ. تطلق يديها.ثمّ تقول مستعطفة:

- أقدّر فعلك وأحترمه، لكنّي لست مسئولة عنه.. لذا يتوجّب عليك، من باب الاحترام، أن تكون كذلك مسؤولا عن أقوالك..

أقول مقاطعا ومتذمرا:

- عليك أن تفهمي أنّي لم أقل شيئا بشأنك ولا بشأن غيرك.

يسود صمت. تتطلع إليّ. تتفحصني من أخمص قدميّ إلى رأسي. تزفر زفرة قوية ثمّ تستدير. تلقي بنظرة ساخطة على المريض قبالتي. وتغادر الغرفة.

***

مشوش الرّأس، أحاول استعادة صورة الساحة قبل أن تغزو تلك العلامة الحيّ. لاشيء فيها يغري النظر أو البقاء فيها. لا يمكنني أن أتصوّرها أن تظلّ على هذا الحال. أفكر في مصيري، الذي طالما ربطته بها. ما عساني أفعل في هذا المكان الّذي لم أعد أعرفه؟ كم من الوقت يلزمني لأتكيّف مع مكان كهذا؟ تعذبني فكرة البقاء به. البقاء المفروض.

مضطرا أتجاهل الفكرة. أقنع نفسي بخطئها، فأبعدها من رأسي. عليّ أن أقتنع، أنّ ما يحدث الآن ليس أبديّا. المكان لا يتغيّر. لا يتغيّر بوضع علامات عند مداخل البيوت للتّنبيه إلى وجود شيء ما. تلك العلامة الّتي ستزول بزوال هذا الشيء.

أتنهد. أسترخي. أبتسم فرحا بالفكرة. الفكرة الّتي تريحني. وحتّى لا أضطر مجدّدا لتبني فكرة أخرى، قد تقلقني، أغادر الساحة.

ليس في بالي وجهة معيّنة. مستغلا صفاء ذهني، أمشي. أمشي فحسب. أشعر أنّ لمسة قدمي على الأرض خفيفة، وأنّ جسدي نقص ثقله. أتبيّن أن خطواتي سريعة من غير قصد. أحاول أن أتباطأ في مشيي، فلا هدف لي. أتوقف. أتطلع للبيوت وللمداخل المقفلة من الخارج. يسوء مزاجي حين أرى تلك العلامات المرسومة بالجير الأبيض. هل هي لعنة من الله على هذا الحيّ؟ أم هي مجرّد ابتلاء لقياس درجة الإيمان؟ إيمان فقراء حيّ الصفيح دون أغنياء المدينة.

إمام الجامع، الّذي اختفى بعد خطبته، قال ساخرا، أن المرض الخطير يستطيع أن يميّز بين الناس. بين الغنيّ والفقير، وبين المؤمن والكافر، وبين الساكن في حيّ الصفيح والأحياء الأخرى. وربّما يريد، يقصد المرض، أن يمحو من المدينة حيّا عمّره اللاجئون والمهاجرون والهاربون من الحياة، والّذين شوهوا صورتها..

ليس بمقدوري أن أتخيّل أن المرض مجرّد خدعة. ربّما لأنّي عانيت بنفسي آلامه وما زلت. لكنّي في نفس الوقت، مثل كثيرين من سكان الحيّ، أعتقد أنّ الإمام ورغم كلامه الهازئ رأى أنّ المرض فرصة لمحو هذا الحيّ الّذي شوّه المدينة.

يفاجئني ثلاثة رجال. لا أستطيع تخمين من أين جاءوا. يحاصرونني. يتطلّعون إلى وجهي. يباغتني أحدهم بصوت حادّ:

– ماذا تفعل هنا؟

– لاشيء.

يقول آخر بعد أن انحنى قليلا:

- هل معك ترخيص؟

أجيب مستفهمًا:

- ترخيص؟

يتجاهل استفهامي. ينظر إلى مرافقيه ثمّ يضيف سائلا وقد رفع من صوته هذه المرّة:

- من أنت؟

لم ينتظر جوابي، فجرّني من يدي. لم أقاومه، ولم أترجه. تبعته مستسلما لا أدري وجهته.

***

أراقب شفتيه. أعرف أنّه سيتحدث معلقا أو متسائلا. ولا أنكر أنّي أنتظر أن يقول شيئا، قد يريحني ذلك ممّا أنا فيه الآن. قد أجد عنده عذرا لها. لم أتصوّر أن تكون زيارتها بهذا الشكل وبهذه الطريقة. لم تسألني عن حالي. لم

تبتسم مطلقا. أقتنع أن ما جاء بها ليس أمرا بسيطا، وليس لأجلي.

يتطلّع إليّ وهو ينزل من سريره. أخمن أنّه يقرأ ملامح وجهي. يصطنع ابتسامة وهو يقترب منّي. يجلس على حافة سريري. يضع يديه متشابكتين فوق فخذه، ثم هادئا يسألني:

– من تكون؟

– الطبيبة الّتي أسعفتني بالمستشفى قبل أن أُنقل إلى هنا.

يهز رأسه ويمص شفتيه. يصطنع التفكير أو هكذا بدا لي. يفكّ يديه المتشابكتين، وبسبابته اليمنى يحكّ شعر لحيته الكثة. يضغط بشفته العلوية على شفته السفلية ويقول:

– هل صحيح ما قلت، أنّك لم تقل شيئا بشأنها؟

أدير وجهي قليلا عنه وأتنهد. ولا أجيب.

- اعذرني.. فقط أريد أن أتأكّد.

متعجبا أتطلع إليه، ثمّ أتساءل:

- تتأكد؟

- نعم.

يتفحص وجهي، ثم يضيف:

- لا أشك أنّها في موقف حرج بسببك.

أتطلّع إليه بعد أن عدّلت من جلستي على السرير.

- كيف يمكن أن تكون في موقف حرج بسببي وأنا لم أذكرها؟

يقوّس حاجبيه. ولا يقول شيئا. فأستدرك موضحا:

- إنّي لا أعرفها.. لا أعرف حتّى اسمها.

- لكن كلامها يؤكد أنّك قلت لهم شيئا عنها.

- لم أقل شيئا لا عنها ولا عن غيرها.

يقوّس حاجبيه مرّة أخرى. أعرف أنّه يقوّس حاجبيه كلّما خالجه الشك. وبما أنّه ليس بمقدوري أن أبرهن له على صحة كلامي، أركن للصمت. ربّما أدرك قراري فعلّق محاولا استدراجي للحديث:

- أنا أثق بك، وأصدّق ما تقول، لكن أعتقد، صراحة، أنّها لم تأت هكذا.

على الرغم من أنّه لم يقوّس حاجبيه، فإنّ تعليقه المنمق لم يعجبني. فظلّ ينظر إليّ صامتا. ربّما كان ينتظر أن أقول شيئا. لكن ماذا أقول؟ إنّي لم أستطع إقناع هذا الّذي يقاسمني الغرفة، فكيف أقنعها هي؟ ينتابني ريب فيما أنا فيه. ريب في عقلي وفي نفسي. ريب في كلامي الّذي قلت والّذي لم أقل، وفي هذا الّذي أمامي، وفي الطبيبة الّتي فاجأتني بزيارتها، وفي الحليق الرأس الّذي لم أره منذ يومين، وفي الرّجلين الشبحين اللّذين توعداني بالموت البطيء.

تلك اللّيلة، لم أنم، ولم أستطع طرد وجه الطبيبة الغاضب ولا صوتها الساخط من تفكيري. ماذا يمكن أن

يكونوا قد قالوا لها؟ أو فعلوا لها؟ ولماذا؟ لا أجد تفسيرا لذلك، لكنّي متأكد أنّها تعرضت لاستجواباتهم، وربّما لتحرشاتهم. لا أستبعد أن تكون هي الأخرى قد وقعت ضحية المكتب الثاني، مثلما وقعت قبلها جميلة.

***

خطواتهم طويلة. ثابتة. يدي لازالت مكبّلة بيد أحدهم. أجد صعوبة كبيرة في مجاراة خطواتهم. مرهقا أتبعهم. أتأخر قليلا عنهم فيجرجرني، الّذي يمسكني، من يدي. صرت شيئا ما معلقا بيده. لم يتعب نفسه لينظر إليّ. إلى ما أنا فيه. لم يتبادلوا النظرات فيما بينهم. ولم يكلّم أحد منهم الآخر.

عند مدخل المستشفى القديم، وضعني كما يضع كيسا على الأرض. تطلّع إليّ آمرا أن أبقى مكاني، ولا أتحرك منه إلاّ بإذنه. لم أجد غير هزّ رأسي موافقا. تقدّم أحدهم من باب صغير عن يمين الباب الكبير المخصص للسيارات والعربات، وقد عُلّقت عليه لافتة صغيرة تمنع دخول أيّ شخص دون إذن وفوقها رُسمت العلامة X بالجير الأبيض،

وطرقه ثلاث مرّات. نظر إلى ساعته. ثمّ أعاد دقّ الباب بقوّة. تقدّم مرافقه وركل الباب. لم أتمكن من عدّ الركلات لأنّ صوتا من الداخل جاء قويّا معلنا عن قدومه.

انفتح الباب. أطلّ شخص منه. فكشف عن وجه عريض بشاربين طويلين وعينين غلّف محيطيهما السّواد. ثمّ تقدّم بخطوتين. فظهر بجسده الضخم وملابسه البيضاء الملطخة ببقع من الدّم. تطلّع إليهم باسما، ثم مدّ يده نحوي وجرجرني إلى الداخل، ثمّ أغلق الباب. حاولت الإفلات من يده، لكن قبضة يده كانت شديدة، حيث لم أتمكن معها من الحركة. باكيا صرخت وحاولت أن أفهمه أنّي شفيت. لم ينتبه لكلامي فواصل مشيه.

معلقا بيده الضاغطة أصرخ وأستغيث طول ساحة المستشفى. تدافع رجلان بلباس أبيض نحوي. حملني أحدهما بين يديه وأدخلني غرفة بها مكتب. أجلسني على مقعد خشبي وطلب منّي أن أهدأ حتّى يراني الطبيب. خرج وأغلق الباب وراءه.

وحيدا في الغرفة أنتظر. عيناي تتطلعان إلى الباب. تراودني فكرة الهرب. أقوم واقفا وأفتح الباب. أتفاجأ بالرجل الّذي حملني بين يديه يقف عند الباب. أتجاهله راكضا نحو الباب الكبير. يتبعني وهو يتوعدني بالعقاب. أحاول فتح الباب ثمّ تسلّقه. يجذبني من سروالي فأقع بين يديه. يجمع يديّ ورجليّ كخروف يُهيّأ للذبح. ويضغط بذراعيه. يصعب عليّ الصراخ أو البكاء وأنا في هذه الوضعية.

ملقى على سرير في غرفة صغيرة. يقف عند رأسي جامعا يديه على صدره. يتفرسني بعينين سوداوين قد غلّفها احمرار كدم متحجر. أتنفس لاهثا لاسترداد أنفاسي. يتوجه تفكيري إلى الهرب. مقتنعا أنّه كان باستطاعتي ذلك لو أسرعت قليلا، إذ بمقدوري أن أتسلّق الباب. عليّ أن لا أستسلم.

خطوات أقدام تقترب من الغرفة. أستدير بوجهي ناحية الباب وأنتظر. يدخل رجل هندي أسمر. أتطلّع إليه ويتطلّع إليّ. باسما، يقترب منّي. يشمّر عن ساعدي. ثمّ يخرج من جيب مئزره الأبيض خيطا مطاطيا يشدّ به على عضلة

الساعد. ينظف بقطعة من القطن مساحة صغيرة عند التقاء الساعد باليد. يغرس حقنة في شرياني ثم يحرّر الخيط. يسحب الحقنة ويعيد تنظيف مكان الحقن. يترك قطعة القطن عليه. يبتسم، ثم يغادر الغرفة.

***

ليس بمقدوري أن أخمّن ما يدور في رأس هذا الّذي يقابلني جالسا على حافة سريره. وعلى الرّغم من أنّه يقاسمني أكله، شربه، وسجائر "المارلبورو" الفخمة، ويقاسمني الغرفة، الّتي أُفرغت من كلّ المرضى منذ أن جاء، ويحادثني في كلّ شيء، ويسألني عن كلّ شيء، فأنا لا أعرف عنه شيئا، حتّى اسمه.

أحيانا يباغتني بأسئلته الّتي تثير فيّ الشكوك. أسئلة تنطلق من مبدأ أنّه يعرف عنّي كلّ شيء. فأنزوي في مكاني مذهولا أستمع إلى ما يقول. ينمق كلامه ليجرّني للحديث، ففقدت الثقة به.

أنزل من على سريري بصعوبة كبيرة. أتطلّع إليه فأجده

يتطلّع إليّ. أمشي بخطوات غير متزنة نحوه حتّى أقف عند رأسه. أباغته سائلا:

– لم أنت هنا؟

يتفرّسني ذاهلا. أعتقد أنّه لم ينتظر أن أسأله، فقد تعوّد على طرح الأسئلة.

– ولم أنت هنا؟

يجيبني بإعادة سؤالي، وقد قوّس حاجبيه متعجبا.

– إنّك تعرف جيدا أنّي لا أعرف لمَ أنا هنا.

– وما الّذي يجعلك تعتقد أنّي أعرف، لمَ أنا هنا؟

قال. ثمّ عدّل قليلا من وضعية رأسه على الوسادة. أخمّن أنّه يتهيأ لخوض جدال طويل، فأضطر لقطع الحديث.

– لا شيء.. مجرّد تخمين.

عائدا إلى سريري، يصلني تعليقه:

- أعرف أنّك لا تثق بي.. لكن تأكد أنّي لست منهم.

الآن أدرك حجم ما قمت به. لقد بدا لي أنّ ستارا بيني وبين رفيقي بالغرفة قد سقط. مقدرا أنّ عليه أن يثبت أنّه ليس منهم، أو ينهي تمثيليته. وفي الحالتين، أكون قد أكّدت بالشك يقينا.

أتقوقع على سريري. أعلّق نظري بمصباح يتوسط الغرفة. أقدّر أنّه لم ينظف منذ أن وُضع. خيوط عناكب منسوجة على الخيطين اللّذين يعلقانه وقد فقدا لونيهما، مثلما فقد المصباح نصاعة وقوّة ضوئه، أمام آثار الذباب والحشرات.

أكتشف أنّه يقف إلى جانبي. عند رأسي. ينحني قليلا برأسه. أضطر للتطلّع إليه بعد أن حجب عن نظري نور المصباح. يبتسم ويقول:

- عليك أن تثق بي.. ليس لديك ما تخسر.

ينظف حنجرته ثمّ يضيف:

– أريد مساعدتك فقط. أعرف أنّ ما مررت به ليس أمرا سهلا ولا عاديا.

أشبك يدي حول رقبتي. أستمع إليه، وأحاول التفكير في كلامه بتركيز، معتقدا أنّه سيكشف عن نفسه. يتنحنح ثم يواصل:

– هل بإمكاني أن أسألك؟

أومئ له برأسي موافقا، فيقول وقد رفع قليلا من رأسه:

– أنت شاب ذكيّ، وفي مقتبل عمرك، لكن هل تعرف ما ينتظرك؟

على الرّغم من أنّي أعرف إلاّ ما عشته من خلال زياراتي السابقة، أتطلّع إليه بغرابة، محاولا أن أتجاهل سؤاله أو على الأقل أن يظلّ معلقا بلا إجابة منّي. يتفحص وجهي. ينحني برأسه كما كان من قبل. يمصّ شفتيه متحسرا لصمتي وغرابة تطلّعي إليه، ثم يضيف:

– ليس بمقدور عقل الإنسان أن يتخيّل ما بإمكانهم فعله بك.

أقوّس حاجبيّ ذاهلا من كلامه. فيواصل وقد غيّر من نبرة صوته:

– إنّك لا تقدّر حجم ما أقدمت عليه.

أزداد ذهولا بعد أن فتحت عينيّ عن آخرهما تعبيرا على اهتمامي بكلامه. فتشجع وجلس جنبي على حافة سريري ووضع يده على فخذي، ثمّ سألني هامسا:

– أخبرني لم اخترت ذلك اليوم بالذات لتنفيذ محاولتك؟

أستدير بوجهي عنه. أتطلّع إلى الباب ولا أجيب. يهز رأسه ثم يقوم واقفا. يقول وهو يهمّ عائدا إلى سريره:

– لا يهمّني معرفة ذلك، لكن عليك أن تجد لهم جوابا مقنعا.

يجلس على حافة سريره. يتطلّع إليّ وبسبابته يشير إليّ محذرا:

- قضيتك مبنية على اختيارك لذاك اليوم بالذات. فمحاولتك الفاشلة، قد أثارت ردودا وتساؤلات لم تتوقعها، ولم يتوقعْها أحد غيرك. وربّما لم تفكر فيها. لكنك فتحت بابا لا يرغب أحد في دخوله. فإنّ الأمر، الآن، قد تعداك..

***

أصحو من النّوم محموما على هزّات خفيفة على كتفي. أحاول فتح عيني لأرى من يهزّني. أمسح جفني عيني الثقيلتين، معتقدا أن العرق يعيق حركتهما. أجهد نفسي لأرى من يوقظني. يباغتني بقوله:

- كنت تصرخ وتصيح كقطّ في نومك.

أتطلّع إليه بعين نصف مفتوحة. رغم الإضاءة الضئيلة، أتعرّف على ملامحه. أفرك جفني عيني عدّة مرّات،

لأتحقق من أنّه هو. الرجل الذي حقنني. أسأل بصوت محشرج:

– أين أنا؟

– أنت في المستشفى. لقد جاءوا بك هذا الصباح.

يجيبني هادئا من غير تعجب. أستأنس لكلامه الهادئ فأسأله:

– لماذا؟

– أعتقد أنّك مريض. في الصباح ستجرى لك بعض التحاليل لنتأكد.

– لست مريضا. لقد شفيت ومع جدّتي شهادة تثبت ذلك.

– هل كنت هنا بالمستشفى؟

– لا.

يقف. يتطلّع إليّ. ثمّ يقول مؤكدا بسبابته:

- سأعود بعد لحظات. لا تقلق.

يخرج. أكتشف أنّي لست وحيدا بالغرفة. أنزل من السرير. أتطلّع من الباب إلى الساحة ومنها إلى الباب الكبير للمستشفى. أحرّك رجليّ ثمّ يديّ. أتفقد قدرتهما على التّحمل. أخشى خذلانهما لي في هذا الوقت العصيب.

أتفحص من جديد الساحة. على الرغم من كثرة المصابيح المضاءة بها إلاّ أن ضوءها خافت. أستنتج أنّه يساعدني على التخفي والهرب. بداخلي أعدّ. واحد. اثنان. ثلاثة. أنطلق راكضا نحو الباب. أتسلّقه. لا أدري كيف تسلّقت الباب الحديدي، ولا كيف قفزت. لكنّي سمعت تدافع أقدام ورائي، وأصواتاً تتوعدني بالملاحقة والعقاب. لم أتوقف عن الجري حتّى باب الدار، رغم الظلام.

لاهثا أطرق الباب. لا أعتقد أنّ يدي بمقدورها أن تتوقف عن الطرق. ترتجف. لا أتحكم فيها. تصدر منّي تنهدات صارخة. أحسّ بالاختناق. قلبي ينبض سريعا. أسمع

نبضاته. أعتقد أنّه سيتوقف عن النبض. العرق يسيل على عينيّ، لكنّي لا أقوى على مسحه. أتفرّس الباب الّذي لم يفتح بعد. أركله برجلي. أعيد ركله عدّة مرّات، ولا أحد يجيب.

على إيقاع الطرق والرّكل أفقد صوابي. ترتخي يدي غير قادرة على المزيد من الطرق. وتتقلص عضلات كاحلي فتتوقف عن الركل. غير قادر على مقاومة أعضائي، أنهار باكيا.

أجلس بشكل قط عند عتبة الباب. أتنفس بعمق محاولا تهدئة نفسي. أفكر فيما سأفعله الآن. لا يستقر رأيي على قرار. هل أبقى هنا وأنتظر؟ أم أبحث عن جدّتي؟ لكن أين هي؟ أين ذهبت؟ وأبي، أين هو؟.

***

عند مجيء اللّيل، وأنا على سريري أفكر محاصرا ذهني في يوم انتحاري. عليّ أن أجد جوابا مقنعا لاختياري ذاك اليوم. كان من الممكن أن يكون الأمر جيّدا ومريحا لي، لكنّه صار أمرا سيئا. أسوأ مما تخيلت. فقط، لأنّ محاولتي فشلت.

ماذا سيتغيّر أن نموت أو ننتحر في يوم يصادف تاريخه يوم عيد استقلال الوطن، وقد مرّ عليه عشرون سنة، أو في غيره؟ لم أعتقد أنّي الشخص الّذي يهتم به الآخرون ليكون يوم انتحاري يوما ذا شأن! أُواجه الأمر بسخرية تامة بداخلي. السخرية من شيء لم أضعه في الحسبان. السخرية من تبرير ما لا يُبرّر، تبريرا مقنعا.

لم أقتنع يوما أنّي حيّ، وما من أحد اهتم بحياتي. فلماذا يهتمون بموتي؟ ألم أكن بينهم كما الميت؟ اعتقدت لسنوات أنّ حياتي ملكي، واليوم اكتشف أنّها ليست كذلك. أليس بديهيا أنّنا نعيش ننتظر لحظة موتنا، أو هكذا يبدو لي على الأقل؟ فلماذا أبرّر إن اقتنعت أنّها تأخرت وعليّ استعجالها؟ لقد افتقدت كلّ رغبة في الحياة، حين افتقدت الأحلام الّتي تغذيها.

الأمر، الآن، ليس أن شيئا حدث لي، إنّما هو ما سيحدث لي. لقد عشت تجربة، أنا مسؤول عنها، وعليّ تحمّل تبعاتها. أعرف أنّي أرتبك حين أفكّر فيما ينتظرني، لكنّي لا أملك غير انتظاره. ليس الأمر عندي مرتبطا ببطولة ما بقدْر

ما هو مرتبط بمجرى القدَر وعليّ معايشته. إنّي لا أملك قدرة قول لا.

لم أكن أعلم أنّه مع منتصف الليل ستنتهي إقامتي بهذا المستشفى. معصوب العينين ومكبل اليدين خلف ظهري، يجرجرني الرجلان اللّذان توعداني بالموت البطيء. قلقا أدفع قدميّ في الظلام، حتّى أتجنب مزيدا من الصفعات والرّكلات. لم أسمع غير وقع أقدامنا، ونحن نجتاز رواقا طويلا أو هكذا بدا لي، ثمّ بضعة درجات. يقول الّذي عن يساري للآخر ساخرا، وهو يضغط بيده على زندي:

– إنّك ترى..لقد تعافى.

أدرك أنّه يعنيني.

– هذا جيّد، له ولنا.

يجيبه الآخر. ثم يتوقفان. اضطر للوقوف. أسمع أبواب سيارة تفتح. دافعا جسدي كلّه نحو السيارة لأركب دون مقاومة بين الرّجلين. يصطدم رأسي بسقفها، لكنّي لا أتأوّه.

أسمع وقع أقدام تقترب من السيارة. بدا لي الوقع مألوفا. إيقاع الوقع متثاقل. يركب. أخمن، من يكون؟ أفكّر بالحليق الرأس. خطواته ثقيلة نظرا لضخامة جسمه. قلقا ومرتبكا أُبعد الفكرة من رأسي. ربّما يكون رفيقي بالغرفة. لكن ما الّذي جاء به معهما؟ رغم أنّي لم أثق به لحظة، لكنّي لا أعتقد أن يكون منهم. لا أتمكن من تحديد صاحب الوقع بشكل قاطع، لأن طريقة مشيهم متشابهة. فأقرر بداخلي أنّه سائق السيارة، مبعدا كلّ ريب، ومريحا نفسي من جهد التخمين.

تنطلق السيّارة بسرعة مخلّفة صوت احتكاك العجلات بالأرض. أتأكد من سرعتها الكبيرة، من خلال اهتزازها، ومن تمايل جسدي الملقى على الكرسيّ الخلفيّ. أعرف أنّها ستقلص من سرعتها قليلا، وستظل تدور وتدور في شوارع وأحياء المدينة، حتّى أتوهم أنّه تمّ نقلي إلى مكان بعيد.

أقدّر أنّي مكثت بها لأكثر من ثلاث ساعات، وقد خيّم عليها صمت رهيب خلالها.

***

أتحسس طريقي في الظلمة. لا وجهة بعينها أقصدها. أمشي فحسب. من حين لآخر أتطلّع إلى السماء. عتمة. لا قمر فيها ولا نجوم. خائفا ومرتبكا، أشعر أنّي أمشي في الفراغ. فراغ لامتناهٍ. أتسمّع لنبضات قلبي. أحسّ بالاختناق. أحاول تهدئة نفسي فأتنفس بعمق. أقرّر أن أعود. أن أمكث عند باب الدّار. ربما قد يأتي أبي أو جدّتي.

متذمرا، أجلس مقرفصا عند عتبة الدار. رأسي على ركبتي. ويداي تضغطان عليه. صداع برأسي يزداد كلما فكرّت بالوقت. الوقت الّذي مرّ عليّ ولم يأت أحد لنجدتي من هذه العتمة، الّتي أنا فيها. غاضبا لا أرغب في التفكير الآن. مقتنعا أنّي أعيش لحظة خذلان. لقد خذلني أبي وجدّتي. لم يبحثا عنّي ولم ينتظراني. أخمن، أين هما الآن؟ وماذا يفعلان؟ لا أجد تبريرا لغيابهما، مثلما لا أجد تبريرا لما أنا فيه الآن، لو كانا حاضرين. فأبكي. ليس بمقدوري كتم بكائي. لم أعد أملك غير البكاء ملجأ لي، بعد أن غيّب الموت أمّي.

أمّي في الجنّة، في السماء السابعة. وعلى الرغم من أنّها بلا نجوم ولا قمر، أتطلّع إليها. أبحلق فيها. حالما برؤية

وجهها، أجهد بصري، ليدركها، تحلّق من فوقي. ترعاني. تؤنسني. ثم تبتسم لي. فأشكو لها الخذلان الّذي أعيشه. لكنّي لا أرى شيئا. غاضبا، أترك رأسي يعود إلى وضعيته الأولى. ينغمس بين ركبتيّ، مثقلاً بالخيبات.

أعود للبكاء. للعويل والصراخ. وبداخلي أتمنى أن يسمعني أحد ما. قد يقدّر ما أنا فيه. فينقذني من الظلمة والوحدة. لكن في نفس الوقت أخشى مجيء "الروخو" "الفسيان" أو أتباعه.

أستفيق من غفوتي (ليس بمقدوري أن أحدّد كيف ومتى غفوت)، على مواء قطة. يقترب منّي المواء تدريجيا. هادئا أنتظر. لا أفكّر في الرّد عليها. أخشى أن لا تثق بي فتهرب. أرغب في رؤيتها. يخفت المواء فجأة. خائفا من أن تذهب بعيدا، أبعث مواء مستعطفا لأحدّد موقعي. يصلني ردّها. فرحا به أبادلها المواء. أستأنس. تقترب منّي على بعد خطوات. تجلس. تنظر إليّ بعينيها الثاقبتين. أعرف أنّها مندهشة لوجود شخص يموء. لكنّها لا تتوقف عن مبادلتي المواء. ربّما تكون قد فقدت الثقة بعالم القطط، مثلما فقدت أنا الثقة بعالم

الإنس.

فجأة تقف. تتطلّع يمينا ثمّ شمالا. تموء. أبحلق فيها. أدرك من موائها أنّها شعرت بشيء ما. خطر ما. أقف صامتا، وأتطلّع إلى يميني وشمالي. ثم أنظر إليها فتبادلني نظرة ثاقبة. أتأكد من نظرتها أن أحدا ما يقترب منّا. تنطلق يمينا. لا أتردّد في اتباعها. على بعد خطوات فقط، تصلني أصوات هرج. لا أستطيع تمييزها. بلا تفكير أتبع القطة راكضا. هاربا.

***

أستطيع أن أخمن ما سيحدث. سأظل بهذه الزنزانة ليوم أو يومين. لا ماء ولا أكل. لن ترى أحدا. تقضي أشياءك في ركن من أركان الزنزانة، تختاره أنت. ومن حين لحين تسمع صراخا وعويلا. وتسكن التأوهات أذنيك طول الوقت، وإذا توقفت للحظات فلتسمع وقع الأقدام. لكن لا أحد يطل أو يدخل عليك، حتّى تعتقد أنّك نسيا منسيا.

أعرف جيّدا أسلوبهم هذا، ولا أعتقد أنّهم غيّروه. يرغبون في رؤيتك منهكا، غير قادر على التفكير، مستسلما

لما يقولون وموافقا على ما يملون. لكن قبل ذلك سيبدؤون بسرد كلّ تفاصيل حياتك، من ولادتك حتّى اليوم الّذي زرتهم فيه. أعترف أنّهم لن يتركوا شيئا إلاّ وأحصوه، لكن تأويلاتهم لها ستكون وفق ما يعتقدون ويرون. لا يهمّهم ما ترى أو ما تعتقد.

أتمدّد على الأرض. الهواء هنا فاسد وكريه يبعث على النّعاس والإغماء. لكنّ لا أقدر على النّوم، لانزعاجي الدائم من الصراخ والعويل أو من وقع الأقدام، أكثر من انزعاجي من الرائحة الكريهة، الّتي بدأ صدري يتعوّد عليها مرغما. ليس لي ما أفعله غير التحديق في جدران الزنزانة، الّتي لازالت تحتفظ بذكريات بعض من مرّوا بها. آثار دم. الدّم الّذي تغير لونه، ولم يعد يعني إلاّ شهادة عن آلام جسد إنسان مرّ من هنا.

المكان مظلم. لا نافذة فيه ولا مدخل للضوء. مصباح صغير يضيء الممرّ. سيطفئونه بعد منتصف الليل، ويشعلونه بعد الفجر. وسيكون المصباح هو المعْلم الوحيد لمعرفة الوقت، إمّا بعد أو قبل منتصف اللّيل. وما الفائدة من مصباح في الممرّ، إذا كان ضوءه لا يدخل، إلاّ من فتحة صغيرة بباب

الزنزانة. أعتقد أنّهم، من خلال هذا المصباح، يمنحون زوّارهم، كما يسمّونهم، فرصة عدّ الأيّام، رغم أن لا أحد من الزوّار يمكنه الجزم بمواقيته، أو تمكن من العدّ لأكثر من أربعة أو خمسة أيام.

أجدني مضطرا للتفكير بهم. أتخيّلهم مكاني. ينتظرون ما أنتظر. لكن سرعان ما يتلاشى التفكير في دوامة السؤال. هل هم بشر مثلي؟ سؤال من السّهل الإجابة عليه. وبداخلي أقتنع أنّهم كذلك، لكنّي أفشل في إيجاد تبريرات لما يفعلون. ليس بمقدوري أن أتخيّل إنسانا يتلذّذ بتعذيب إنسان آخر. يبتهج حين يتألّم الآخر، حتّى وإن كان ذلك بدافع البحث عن الحقيقة. الحقيقة المهملة بعيدا وخارج آلام الجسد.

من تجربتي السابقة معهم، تيقنت أن لا حدّ للعذاب ولا حدّ للألم عندهم. لا فرق بين أن أعترف أو لا أعترف. هنا، الاعتراف يفقد كلّ معنى. إن كلّ ما يهمّهم هو خلق مثال آخر. جديد. إنّ نظامهم مبني على المثال، وقائم على أجساد المواطنين وآلامهم.

لا أنكر أنّ ضغط الوقت بدأ يقلقني. أراقب فتحة الباب، وأحيانا أتظاهر بالنّوم. أعرف أنهم يحبّون مباغتة زوّارهم وهم نائمون. مثلما أعرف أنّهم الآن يدرسون أمري. كيف يجعلونني أتوّسل إليهم لمنحي لحظة فقط أتنهّد فيها، وأعيد ترتيب أنفاسي.

***

لا أجرؤ على النظر إلى الخلف لمعرفة مصدر الأصوات. لاهثا أركض وراء لاشيء ونحو لاشيء، بعد أن غابت القطة وسط العتمة. لا أحبّ أن أفكّر بها وتصنيفها مع من خذلوني. لاشك عندي في ذلك. أحاول أن أبتعد قدر الإمكان عن الأصوات الّتي تتبعني.

وأنا أجتاز، بغير تصميم مسبق، ساحة الأبطال جاءني مواؤها. بدا لي صوتها منقذا لي ممّا أنا فيه. أفتح أذنيّ لأتسمّع. يصلني المواء متقطعا. عليّ أن أحدّد مكانها.

عند شجرة الخروب، أتوقف لاهثا. أتطلّع إلى الشجرة. إلى أغصانها. فأرى بريق عينيها. أتسلّق الشجرة دون

تفكير. أرّتب أنفاسي. ساكنا، هادئا أجلس على غصن قدّرت أنّه يحملني، فيما القطة ترمقني بنظراتها الثاقبة. أبتسم لها. لم أجد غير الابتسامة لشكرها في الوضعية هذه، حيث لا يمكنني المواء الّذي يكشفنا، ولا أعرف كيف قدّرت أنّها تبادلني الابتسام.

تحتنا، تحت الشجرة، توقف أربعة رجال يلهثون. يتطلعون لكلّ الاتجاهات. يقول أحدهم بعد أن بصق على الأرض:

- ابن الزنا، أين اختفى؟

يقول آخر وهو يقطع كلامه ليُمكن صدره من أن يتنفس:

- أعتقد أنّه.. واصل جريه.. إلى المقبرة.

- إن دخل المقبرة فلا يمكننا العثور عليه.

يقول ثالث جازما، ومن خلال صوته أدركت أنّه الحارس بالمستشفى. ثم واصل الثاني في تقطيع كلامه:

- إلى متى.. سيظل هاربا؟ سنجده.. وسيعرف.. ما ينتظره؟ غدا..

- هل تعرفه من هو؟

يقاطعه الأوّل. فيجيبه الحارس:

- لا.. أعرف من هو.. لكنّي.. رأيت ملامح وجهه.

يسود صمت. أشعر أنّ الغصن الّذي يحملني يهتز. مرتبكا، أضع قدميّ على غصن آخر لتخفيف الثقل، ثمّ أمدّ يدي اليمنى مطوقا جذع الشجرة، لتثبيت جسدي.

يقول الأوّل متحسرا،وقد سار بضع خطوات:

- علينا أن نعود.

أبتهج لهذا الكلام، فجسدي يثقل ويداي تتصلبان. أتطلّع للقطة، فأجدها تتطلّع إليّ. أبتسم. أبتسم لها، مقدّرا أنّ ذلك يطمئنها.

أسمع وقع أقدام. أقدام تقترب. معتقدا أنّهم جاءوا لأجلي، أتهيأ متظاهرا بالنّوم. تسري رعشة في كامل جسدي، حين يدور المفتاح بقفل الباب. ينفتح الباب محدثا صريرا. أفتح عيني، لكنّي أضطر لغلقهما جراء أشعة ضوء المصباح، المنبعثة من باب الزنزانة على الرغم من قلتها. تعوّدت عيناي على العتمة، رغم أنّ إقامتي لم تدم أكثر من يومين. تصلني بعض الرّكلات. أرفع رأسي محاولا النظر، لكني، لا أرى إلاّ شبحا أمامي، يضع قناعا على رأسي.

يقول الشبح بصوت هازئ، ومن خلال صوته عرفت أنّه أحد الرجلين:

- مدّة استراحتك انتهت.

يسحبني من كتفي. أمشي دافعا قدميّ إلى الأمام. لم يدم مشيي طويلا. يجلسني على كرسيّ خشبيّ. يربط يدي وقدميّ إلى الكرسيّ، فأدرك أنّي بالمخبر. مخبر انتزاع الحقيقة كما يسمّونه. ينزع القناع عن رأسي، فتصطدم عيناي بضوء

كثيف. أحاول تجنب الضوء، لكن يدا من الخلف تمسك بشعري وتثبت رأسي باتجاه الضوء. لا أقاوم اليد، فأغمض عيني. لا أرى شيئا. يقول الّذي يمسكني من شعري:

– هل تحب أن تسمع تهمك؟ أم أنّك تعرفها؟

– لدينا الوقت الكافي لذلك. لاشيء وراءنا يشغلنا.

يقول الرجل الآخر بصوت صارم. ولما لم أجبه، أضاف:

– سنبدأ من الأول. قلت لك، لا شيء وراءنا يشغلنا.

أدرك أن لاشيء وراءهم، غير تلك الحقيقة الّتي يبحثون عنها. الحقيقة الّتي تجعلهم أبطالا. الحقيقة الّتي لا تُنتزع إلاّ في أقصى عتبات الألم. لذلك فأنا مضطر أن أصمت. فالكلام الآن، في حالتي هذه، وأنا لم أصل بعد إلى أدنى درجات الألم، لا حاجة لهم به. إنّهم لا يسمعون إلاّ ما

يرغبون في سماعه، وحين يرغبون.

- عليك أن تعرف أنّك شخص مريض. مجنون حاول الانتحار، وقمنا بنقله إلى المستشفى للعلاج لكنّه هرب، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب؟

يصمت. يتمشى قليلا. أسمع وقع حوافره. فيباغتني الآخر من خلفي:

- إنّنا نقول لك ذلك لتعرف وتقدّر ما أنت فيه.

- هذا يعني، أنّه بعد أن ننهك جسدك، سيجدونك في مكان ما، ميّتا، لأنّك انتحرت.

يقول الآخر بصوته الصارم دائما كأنّه يلقي خطبة. فيضيف الصوت من خلفي هازئا:

- بإمكانك أن تقول لنا في أيّ مكان تحب أن نرمي جثتك. سنعمل على تنفيذ وصيتك.

لا أجيب. لكن بداخلي أتمنى أن يكون ذلك قريبا.

فيعود الصوت صارما:

- نعرف أنّك تحبّ المقابر. لا عليك، سنرمي جثتك بمقبرة المدينة، وهكذا سيقول الناس، أنّ أحمد القطّ، انتحر بالمقبرة وسهّل على الناس دفنه. لكن لا تحلم بذلك الآن، فموتك لن يكون بهذه السهولة ولن يكون قريبا.

يقهقهان للحظات. ثم يسود صمت بعد أن توقفا عن قهقهاتهما. وعلى الرغم من أنّي لا أرى شيئا، فإني متيقن من أنّهما الآن يتطلّعان إلى وجهي، ويتبادلان النظرات. يقول، الّذي خلفي، ساخرا كعادته:

- لماذا لُقبت بالقطّ؟

يجذبني من شعري بقوّة، ويضيف دون أن ينتظر جوابي:

- هل بإمكان القطط، الّتي تعاشرها وتتفنن في إطعامها، أن تحميك الآن؟

لاإراديا أهزّ رأسي، يمينا وشمالا، رغم قبضته القوية، معترفا أن لا أحد بإمكانه أن يحميني. يخفف من قبضته قليلا، ثمّ يقول سائلا، بصوت فقد سخريته هذا المرّة:

– كيف استطعت أن تجمع كلّ تلك القطط حولك؟

ليس بمقدوري أن أشرح له تفاصيل كلّ ذلك، فاكتفي بجملة فقط، على الرغم من أنّي لست متيقنا أنّه يفهمها ويقدّر دلالتها:

– فقط لأنّي أعطف عليها.

يجذبني من شعري بقوة. يدنو منّي، حتّى أحسست بأنفاسه عند وجهي، وشممت رائحة دخان رخيص، (أعتقد أنّها سجائر أفراز الّتي كنت أحبّ وأشتهي)، ثم يقول متسائلا:

– وهل تعتقد أنّه بمجرّد أن تطعمها تصير تابعة لك؟

لا أجد تبريرا آخر، رغم يقيني أنّه لم يفرّق بين العطف

والإطعام، فأهزّ رأسي موافقا. لكنّه يشدّ من قبضته ويُقرّب وجهي من المصباح، حتّى وصلتني حرارته. ثمّ يقول:

– ربّما..ربّما..

– لكن، ماذا كنت تنوي أن تفعل بها؟

يقاطعه رفيقه الآخر سائلا، بصوته الصارم. أفكر أن أقول لهم، لا نيّة لي، إلاّ أنّي أجد متعة واستئناسا في العيش معها. متيّقنا، أنّ جوابي هذا لا يقنعهم، ألجأ إلى الصمت.

ينظف حنجرته، ثم يقول:

– نعرف أنّك شخص ذكيّ، ولا شكّ أنّك تقدّر حجم خطورة ما تفعله قططك. أم تريد أن نقرأ عليك كلّ الشكاوى الّتي جمعناها؟

يضيف، الّذي خلفي، هامسا في أذني.

– وقططك لم تفعل شيئا إلاّ بأمرك.

لست مندهشا مما يقولان. أعرف أنّهما يستطيعان أن

يبنيا من لاشيء هرما، وأن يجعلا من مجموعة قطط مملكة معادية. لكنّ الأمر لم يتضح بعد. لماذا أنا هنا؟

***

عليّ أن أتحمّل الألم. أن أكتم أنفاسي للحظات، حتّى أتأكد من ابتعادهم عنّا. سقوطي لم يثر هرجا. أتطلّع إلى القطة. عيناها تشعان قلقا وخوفا. هذا ما أقرأه منهما. الأحاسيس لغة مشتركة. تعبير كوني. تتفقد القطة المكان بعينيها الفاحصتين، ثمّ تصدر مواء خفيفا. لا يلزمني تفكير طويل لأفهم أنّ المكان صار آمنا. أتنّهد. أتفقد أعضائي. أبدأ بقدمي اليمنى. أحركها. أشعر بآلام خفيفة. ثمّ أتفقد كتفي اليمنى. أتحسس بيدي اليسرى لوح الكتف، وأحرك في نفس الوقت ذراعي. أقف. متفقدا تناسق أعضائي، أمشي بضع خطوات دائريا حول الشجرة.

أشعر بالتعب وبالنّعاس. لا شيء الآن يسعدني أكثر من أتكوّم في فراش آمن. أنسى هروبي من المستشفى وتلك المطاردة الّتي لم تنته بعد. وعليّ أن أتهيأ لها في الغد. لكن

كيف؟ ماذا أفعل؟ أجدني مضطرا للتفكير في ذلك، رغم أنّي متعب وأحلم بالنّوم.

أنظر فاحصا القطة الّتي تحوم بين قدميّ. أدنو منها. هادئا، أمسح على رأسها ورقبتها. تبادلني النظر ولا تتحرّك. بداخلي، أقدّر أنّها أدركت ما أنا عازم عليه.

أنطلق بخطوات سريعة، رغم شعوري بآلام خفيفة في قدمي. تتبعني القطة. تمشي خلفي، وأحيانا أمامي. هل تكون فعلا قد أدركت وجهتي؟ لست متيقنا من ذلك. ربّما تستطلع طريقي في هذه العتمة. خطتي أن أقصد المقبرة، لكن القطة انحرفت جنوبا تاركة باب المقبرة عن شمالها. ولم أتردّد في اتّباعها.

على الرغم من أنّي أجهدت نفسي قليلا، فإنّ الطريق كان خاليا، وهو ما يعني لي، أنّه آمن. تسلّقنا السور القديم للمقبرة من جهتها الجنوبية. ثمّ تسلّلنا إلى ضريح قديم. قبر بقبّة. حول القبر فرشت أغطية قديمة من الصوف. أتحسسها في العتمة، وأمدّد جسدي. تقفز القطة إلى نافذة صغيرة جنب

المدخل. تتطلع إليّ. أقرأ من بريق عينيها أنّها حارسي هذه الليلة. مبتسما لها أغمض عيني.

أصحو من النّوم على حلم، أتصبب عرقا. حلم لم أعد أذكر بدايته ولا نهايته، سوى رجال بكلاب ضخمة يجرون ورائي، فأهوي من قمة جبل في الفراغ. أمسح عرقي بكفيّ. أظل ممدّدا، مريحا جسدي ما أمكنني، رغم أنّه ليس بمقدوري الآن العودة للنّوم، وقد أخذ نور الصباح يدخل عبر المدخل والنافذة. أتطلع للقطة. لم تبرح مكانها، لكنها لا تتطلع إليّ.

أتلهى هاربا، بتفكيري ممّا ينتظرني، بفحص هذا المكان الّذي آويت إليه، والّذي يشعرني أنّي أعرفه. جدران الضريح فقدت نصاعة طلائها الأبيض. أمّا السقف فقد أخذ السوس ينخر خشبه حتّى تقوّس بعضه. وعلى يميني قبر مستور برداء أخضر، فقد هو الآخر نصاعته. أمدّ يدي نحو الستار وأرفعه قليلا، لأتطلّع للقبر. قبر مسيّج بزليج أخضر. عند رأس القبر شموع متلاصقة مع بعضها البعض. أقدّر أن هذا المكان لم يدخله زائر منذ سنوات، خاصة وأنّ العناكب نسجت

خيوطها في كل أركان الضريح.

أتذكر أنّي دخلت هذا المكان من قبل. مذعورا من الذكرى أقوم واقفا. أتجه إلى المدخل وأتخطاه ببضع خطوات. أتفاجأ بعدد كبير من القطط، حول الضريح. لست أدري من أين جاءت؟ ومتى تجمّعت؟ يدهشني ويخيفني تطلّعها إليّ. أبحث بعيني عن القطة الّتي رافقتني إلى هذا المكان. أجدها عند قدميّ تتطلع إليّ. يبدو لي أنّها تطمئنني بنظراتها.

أتنفس بعمق، باحثا عن مخرج. هل أغادر أم أبقى ؟ أغادر، لكن إلى أين؟ عليّ أن أخفي وجهي أيّاما من رجال، لا أشكّ، أنّهم قد بدءوا في البحث عنّي. أم أبقى وسط كلّ هذه القطط، وبهذا المكان الّذي حذّرتني منه جدّتي، وعانيت بعد أن خالفت تحذيراتها؟ لا يبدو لي مكانا آمنا.

***

لاجئا إلى الصمت، ليس اختيارا إنّما مضطرا، لأن الحقيقة الّتي يبحثون عنها، ليست عندي. الحقيقة الّتي عندي لا تقنعهم. عليّ أن أصمت حتّى يتفوهوا بها، يملونها عليّ،

حين ذاك سأعترف بها. لا يهمّني الاعتراف ولو كذبا، بما أنّ اعترافي قد صدر وتقرّر قبل بداية الاستجواب. تقاريرهم مكتوبة لا تنتظر بصمتي وموافقتي. ليس بمقدوري أن أغيّر من الأمر شيئا، فقط أبحث عن تخفيف ألمي. ولست متأكدا من ذلك، لأنّهم كلّما وصلوا لشيء بحثوا عن آخر. إنّها طريقتهم في خلق الأعداء.

أشعر أنّ مثانتي ستنفجر. أحاول تحريك رجليّ المربوطتين إلى الكرسي بإحكام، لتخفيف الألم. ليس بمقدوري أن أحدّد كم من الوقت مرّ وأنا في هذا الحال. كما ليس بمقدوري أن أخمن ماذا سيفعلون، بعد أن حرّر الذي خلفي شعري، وأدار الآخر اتجاه المصباح. بدأت عيناي تتأقلمان شيئا فشيئا على ضوء القاعة.

أكتشف أنّ القاعة فسيحة. يتوسطها مكتب صغير عليه المصباح. من السقف تتدلى حبال وسلاسل. وفي أحد أركانها حوض ماء أبيض. عند قدميّ خيط كهربائي.

أتأملهما بحذر. أجدهما يتطلّعان إليّ، ثم يتبادلان

النظر. أخمن أنّهما أدركا خوفي وقلقي ومعاناتي من الآلام المتصاعدة من أسفل البطن. أجهد نفسي، قدر ما أستطيع، لكتم نبضات قلبي وتأوّهاتي. عضلات جسدي تتقلص ضاغطة على بعضها البعض.

يدخل ثالث. يقترب من المكتب. يضع حزمة أوراق. يتطلّع إلى الرّجلين. يقتربان منه. يضع يديه على المكتب ويواجهني. يتفحصني. ذاهلا أتطلّع إليه. أغمض عيني وأفتحهما عدّة مرات لأتأكد ممّا أرى. لست متيقنا من أنّه يبتسم لي. ربّما قدّرت ذلك لأنّ من عادته أن يبتسم لي حين تلتقي أعيننا.

ينظف حنجرته، ثم يقول:

– أعرف أنّك كنت تتوقع أن تراني هنا؟

يرفع يده اليمنى ويشير لي بسبابته قائلا:

– لا تفقد ثقتك بي. بإمكاني مساعدتك لو تعاونت معنا.

يقترب بخطوات ثابتة كأنّه لا يريد لفت انتباه أحد. يدنو منّي. يقول هامسا في أذني:

– أعرف أنّك ذكيّ، وتقدّر ما أنت فيه. أتمنى أن تستغل الفرصة الّتي أمنحك.

يرتفع عن وجهي قليلا واضعا يده اليسرى على كتفي، والأخرى على فخذي، وينتظر. أخمن أنّه ينتظر جوابي. ينظر كلانا للآخر. يدرك أن لا جواب عندي. يتنهد وهو يتطلّع إليّ. أعتقد أنّه يريد أن يبلغني بأسفه لعدم تجاوبي. يعود إلى مكتبه. يضع سبابته على حزمة الأوراق، وهو يقول:

– هل تعرف أنّ كلّ هذه الأوراق بها شكاوى ضدك؟

يفتش بين الأوراق. يأخذ ورقة بيده اليمنى. يمرّر عينيه عليها بسرعة، ثم يقول:

– جزّارو المدينة يقولون أن قططك تغزو محلاتهم كل صباح وتستولي على لحومهم.

يتطلّع إليّ. ثم يضع الورقة، ويأخذ أخرى. يمص شفتيه، ثم يضيف:

- شرطة المرور تؤكد أن نسبة الحوادث ارتفعت بشكل مذهل، بسبب القطط الّتي صارت تهاجم السائقين. وأنّ عدد الوفيات جرّاء ذلك في تزايد ملحوظ.

يضع الورقة. يتأملني للحظات، ثم يأخذ أخرى. يتفحصها جيّدا. يهزّ رأسه.

- إدارة المستشفى تؤكد اختفاء عدد من المولودين الجدد، وكلّهم من الذكور، خلال الأشهر القليلة الماضية فقط. وتؤكد أنّهم اخْتُطِفوا ليلا من طرف قططك. وهو ما أقرّته تحقيقات الأمن والعدالة.

يضع الورقة. يتأملني فاحصا وجهي. يضع يديه على المكتب. يتنهد.

- هل تحبّ أن أزيدك؟

ينظر إلى رفيقيه. يدور حول المكتب. يقف خلفي.

يشدّني من شعري، ويجذبني بقوّة نحوه. أرى وجهه فوق وجهي.

- لمصلحة من تعمل؟ من يقف وراءك؟

لا أجيب، إذ ليس لي أدنى فكرة عمّا يسأل. ولا قدرة لي على تخيّل أو فهم كلّ هذه التهم، الّتي لا علاقة لها بمحاولة انتحاري في يوم كان عليّ أن أرقص وأصفق فيه. أتساءل بداخلي، رغم الألم والعجز الّذي أحسه، هل حقّا أنا شخص بإمكانه أن يشكّل خطرا على أمن الوطن والمواطن؟ أرغب في الضحك من نفسي ومن غباء السائل.

يجذب شعري أكثر. أشعر بعظام رقبتي تُفكّ عن بعضها البعض، وبقصبة حنجرتي تتصلب. أتنفس لاهثا. يفاجئني بضربة قوية على عنقي كتمت أنفاسي.

***

لا شيء يشجعني على البقاء بهذا المكان، ووسط القطط. أتطلّع للقطة بين قدميّ، ثم أجول ببصري بين كلّ القطط. لم تكن نظرتي نظرة وداع أبديّ، مدركا أنّي قد لا أجد مكانا آخر ألجأ إليه، فأضطر للعودة لهذا الضريح المهجور، على الرغم من تحذيرات جدّتي من دخوله. ولا أنكر أنّ أبي كان يضحك مستهزئا من تحذيرات جدّتي، ويعتبرها مجرّد خرافات وأساطير. التحذير والتخويف من المجهول. المجهول الّذي لا يُقاس ولا يُرى. ولا أحد غامر وعاش التجربة.

في مرّة سابقة، أعتقد أنّها كانت منذ أكثر من أربع سنين، وأنا ألعب مع أصدقائي، اختبأت به. لا أحد منهم استطاع أن يتبعني إلى الدّاخل، فظلّوا عند باب الضريح ينتظرون مذعورين، فقط لأنّهم امتثلوا لتحذيرات أوليائهم، الّتي لم تكن مبرّرة، بقدر ما كانت أوامر عليهم الالتزام بها.

لا أعرف حتّى الآن شيئا ممّا أصابني، بعد أن خالفت أمر جدّتي ودخلت الضريح، لكن في نظر أصدقائي صرت بطلا. أمّا أبي، فلم يزده ذلك إلاّ استهزاء بحكاية الضريح، وصرت عنده الشّاهد على كذبها وخرافيتها. رغم خروجي

سالما منه، فإنّ جدّتي لم تستسلم للأمر. وراحت كلّ مساء ترمقني بنظرة فاحصة، وتسألني عن اسمي وصحّتي، وتتفقد جسدي كما الرّضيع. وبعد أربعين يوما، عرضتني على فقيه الحيّ، خفية عن أعين أبي. قالت له باكية:

- لقد دخل الضريح المهجور.

مندهشا، مصّ الفقيه شفتيه. ثمّ هامسا، طلب السّتر واللّطف. ضاعفت جدّتي من بكائها الّذي تحوّل إلى شخير. وقالت:

- إنّه طفل، يا سيّدي، لم يفكّر في العصيان..

أنت تعرف أطفال هذا الزمن.

هزّ رأسه موافقا. وضع كفّه على جبيني لحظات، ثمّ قال:

- علينا أن نتوسّل إلي سيّدنا بالصّدقات.

تهزّ جدّتي رأسها موافقة وهي تقول:

- كما يريد سيّدنا.

عادت جدتّي للبكاء. لكن الفقيه طمأنها مضيفا:

- إن شاء الله خيرا.. سأكتب لك حجابا، يضعه تحت إبطه الأيمن ثلاثة أيّام، ثمّ يغتسل بمائه.. وفي اليوم الرّابع، عودي إليّ وأحضريه معك.

ليس بمقدوري أن أنسى تلك الأيام، الّتي قضيتها حاملا للحجاب تحت إبطي. أخرج لساحة الحيّ محفلا من تحذيرات جدّتي، الّتي لم تتقبّل أن أخرج سالما من الضّريح. فظلت تحذرني من العودة إليه، لأنّ ذلك يعتبر عصيانا وإعلان حرب على الوليّ الصالح صاحب الضريح. وفي نفس الوقت، تنبهني إلى وجوب الالتزام بأوامر الفقيه والحفاظ على الحجاب، الّذي فيه خلاصي من العمى.

مزهوا بنفسي، أمام أصدقائي بساحة الحيّ، أحكي لهم عن صراعي مع شبح أسود جاءني بالضريح يريد اقتلاع عيني. أختلق الحكاية لهم، فيردّدونها بينهم. ولا أنكر أنّي صرت أخشى أن أفقد بصري، كلمّا أختلي بنفسي وأتذكر

الحكاية. الحكاية الّتي لم تتوقف جدّتي عن ترديدها لكلّ من يسألها عن حالي.

تقول جدّتي بعد الصلاة على الرسول والتسليم لكافة الأولياء:

– كان الضريح مزارا لكل تائه ومريض. وكان سيّدنا يمنح زواره السّلم والأمان، حتّى حدث ما حدث في ذلك اليوم.

تصمت قليلا، وتتمتم طالبة السّتر واللّطف من الله. ثم تضيف بصوت مبحوح:

– ما من أحد كان يعتقد حدوث ذلك. لكننا في آخر الزمن هذا، يحدث ما لا يتخيّله بشر.

تعود جدّتي للتّمتمة قبل أن تضيف:

– تعوّدت العوانس أن يدخلن الضريح، يطلبن فكّ عقدهنّ من الزواج.. ولم تزر عانس يوما، سيّدنا، وترجع إليه إلاّ مع زوجها. كانت زيارة واحدة تكفي لفكّ العقدة

والرّباط، إن كانت زيارتها بنيّة حسنة. لكن، ذات يوم دخلت سافلة وتبعها صاحبها.. أستغفر الله.. فأغواهما إبليس، لعنه الله، فوقعا في المحظور.. فخرجا من الضريح وقد فقدا بصرهما.. ومن يومها، توعّد سيّدنا كلّ شخص يدخل ضريحه بأن لا يخرج منه إلاّ فاقدا بصره..

تصمت. تستغفر ثم تضيف لتؤكد صدق الحكاية:

– آخر الزمن هذا، فيه كثير من النّاس لا يؤمنون بالأولياء.. حتّى مقدّم الضريح هجره، بعد أن حذّره سيّدنا من العودة إليه.. ومنذ ذلك الوقت هُجِر الضريح، كما هُجر اسم صاحبه.. وعلينا أن لا نذكره.

***

أستفيق على ماء يصفع وجهي، ومكتشفا أن سروالي قد تبلّل بالبول. يبدو لي أنّ مثانتي تخلصت ممّا كان فيها أثناء غيبوبتي. لا أنكر أنّ الماء أفاقني كليّا، وفي نفس الوقت غسل

ما بين فخذي.

يقول، الذي كان رفيقي بالمستشفى، آمرا، وهو يتفحصني:

- زده. أريد أن يسترجع قواه، ويتهيأ لما هو آت.

يعود الآخر بدلو ماء، ويفرغه على جسدي. ثمّ يبتعد عنّي قليلا، ويضع الدلو بين قدميه وينتظر. أخمن أنّه ينتظر منه أمرا جديدا.

يسود صمت رهيب. نتبادل النظرات خلالها. يمشي، الّذي كان رفيقي بالمستشفى، بضع خطوات في شكل دائري حولي. يتطلّع إلى زميليه، اللّذين يغادران القاعة متتابعين وبخطوات متثاقلة. يقترب منّي. يضع يديه على كتفيّ، ويتفحص وجهي مليّا، ثمّ يقول:

- اسمع.. منذ مجيئك، وأنا أحاول أن أجنبك ما لا تقدر عليه، فلا أحد قبلك تحمّله. لكن يبدو لي أنّك تدفعني أن أتركك لهما، يفعلان بك ما يشاءان.

أحاول أن أدير وجهي، كي أصرف نظري عنه، لكنّه يحرك رأسه متتبعا عيني. ثمّ بيده اليمنى يمسك ذقني مثبتا وجهي، فأضطر للتطلّع إلى عينيه. يقول متسائلا:

– أعرف أنّك تريد الموت، لكن لن يكون لك ذلك أبدا. فليس بمقدور أحد منّا أن يمنحك ما تريد.

يحرّر وجهي من قبضة يديه. ينظر في وجهي غاضبا، ثمّ يضيف:

– لماذا اخترت ذلك اليوم بالذات للانتحار؟

– لم أختر ذلك اليوم عن قصد. لقد كان ذلك من باب الصدفة فقط.

أجيب دون تفكير. هو الجواب الوحيد الّذي هيأته منذ أن نصحني بالتفكير فيه، ونحن نتقاسم تلك الغرفة بالمستشفى. أعرف أن كلماتي لا وقع لها في أذنيه، لكنّي مضطر للتريث والصبر. فقول حقيقة محاولة انتحاري الآن، لن يفيدني في شيء ما لم يكن مطابقا لتخميناتهم

واستنتاجاتهم.

يتركني ويخرج، بعد أن مصّ شفتيه وبدا عليه أنّه غارق في التفكير. يتلفظ بكلمات غير مفهومة. لكنّي أخمّن أنها كلمات للتهديد والوعيد. أبقى وحيدا مقيّدا إلى كرسيّ خشبيّ. مبلّل الثياب والجسد، أفكّر في لا جدوى التفكير الآن. أعرف أنّه لا نفع من ذلك. لا فائدة من أن أُتعِب عقلي بأشياء ليس بمقدوري أن أكون فاعلا فيها، إذ أنا المفعول فيه.

أسمع وقع أقدام تتسارع بالممرّ، ومعها تتسارع نبضات قلبي. قلقا وخائفا أتطلع للباب. يدخلون متتابعين. يلتفّون حولي، ويشرعون في فكّ قيودي في صمت. صمتهم يرعبني. مستسلما لهم، أتلهى بالنظر إليهم في انتظار ما قرّروا فعله بي.

***

في اليوم الرّابع تجرجرني جدّتي من يدي. بخطوات متثاقلة أتبعها مرغما، رغم أنّي لم أستفق بعد من النوم. لازلت

أسمع صياح الدّيكة، ونحن نعبر الدروب الضيقة للحيّ. تحثّني جدّتي على الإسراع في سيري، حتّى لا نتأخر على الفقيه. لا أقاومها ولكن خطواتي لا تستطيع مجاراة خطواتها. مرّات تضغط بيدها على يدي وتجذبها بقوّة، ومرّات تستدير نحوي وتشتمني، ثم تتوعدني بالعقاب. لا أجد غير البكاء ملجأ لي وتعبيرا عن رفضي.

منهكا أدخل على الفقيه في مقصورته بجامعه الصّغير، خلف سور المدينة القديم، الّذي يعزلها عن حيّ الصفيح. يتطلّع إليّ، بعد ردّ التحية على جدّتي الّتي قبّلت جبينه وأمرتني أن أفعل مثلها. يجلسني أمامه. يتفحص عينيّ. يضع يده على جبيني ويتحسسها. يمص شفتيه. يهزّ رأسه.ثمّ يقول:

- حالته مستقرة.. لكن بعينيه، مازالت بعض الخطوط الحمراء.

يسكت. تتطلّع إليه جدّتي مستفهمة، فيضيف:

- لابدّ أن نكويه.. الكيّ ليس له بل للّذي يكون قد سكنه، ويفيده وهو في هذه المرحلة، ونقطع به كلّ

شكّ في إصابته.

تهزّ جدّتي رأسها موافقة على كلامه. أظلّ صامتا أتطلّع لوجه الفقيه، كأنّ الكلام لا يعنيني. لا أعرف ما يقصد بالكيّ؟ ولا كيف يكون؟. لكنّي أدركت أن الأمر ليس سهلا، حين خيّر الفقيه جدّتي بين أن تمسكني بيديها، أو أن يربط يديّ ورجليّ.

مندهشا أتطلّع لجدّتي. لا أرى على وجهها قلقا، بل هزّت رأسها موافقة على اقتراحه الثاني. كقطّ قفزت من مكاني، وأسرعت للباب. يدي على القفل أحاول فتحه. لكن يد الفقيه جذبتني بقوة وأعادتني إلى موضعي. لم يلزمه كثير من الوقت لتقييدي، رغم كلّ محاولاتي للإفلات من بين يديه.

ملقى على ظهري وفاقدا القدرة على الحركة، أبكي. تمسح جدّتي دموعي بكفّها، وتطمئنني. تعدني بأن الأمر بسيط ولا يتعدّى لحظات قليلة. ثم تترك مكانها للفقيه وتجلس عند قدميّ.

ليس أمامي غير التوسّل للفقيه، وهو يقرفص على

ركبتيه أمام رأسي. يقرأ تمائمه ثمّ يتفل على عيني ويمسد جفنيهما، فلم يُعر توسلاتي اهتماما. وقف وغاب عن نظري. ظلّت جدّتي، الّتي تجلس عند قدميّ، تمسح بيديها على كاحلي وقدمي لتطمئنني وتهدئني. أرقبها لعلّي أكتشف من خلال نظرها ما يفعله الفقيه. ما يزيد من قلقي وخوفي، هو أنّي لم أعد أراه.

ليس بمقدوري أن أبقي عيني مفتوحتين أو أتطلّع للفقيه، الّذي عاد وقرفص عندٍ رأسي، وقد صُدمت برؤية خنجر محمّر. لا أشكّ أنّه كان فوق نار. تصلني حرارته. أحاول أن أستدير متجنبا الحرارة، الّتي تزداد فوق وجهي. لكن يد الفقيه تمسكني من شعري وتثبت رأسي. أغمض عيني ضاغطا بجفنيهما. أحسّ به ساخنا، حارّا يلامس جبيني. أصرخ. أصرخ متألما.

***

يمدّدونني على المكتب عاريا، كما ولدتني أمّي. ثم يقيّدون يديّ ورجليّ إلى أرجل المكتب. أتنفس لاهثا عبر

فمي بعد أن سدّوا أنفي. رأسي يتدلّى إلى الخلف في الفراغ. أحرّكه في كلّ الاتجاهات، باحثا عن وضعية لتقليل الآلام المنبعثة من عظام الرّقبة. لكن ذلك لا يدوم، إذ يقف أحدهم عند رأسي. يمسكني من شعري. ثم ينحني قليلا نحوي، قائلا:

- هل عندك ما تخبرنا به؟

يضع رأسي على صندوق خشبي، ويحرّر شعري من قبضة يده، ثمّ يبتعد مضيفا:

- لقد منحناك فرصة لذلك.. أمّا الآن، فلا يهمّنا ما تقول.

يقترب آخر منّي. يدخل قطعة من الإسفنج في فمي لتعطيل حركة اللّسان. يجلب مرشّ ماء أخضر لسقي الزّهور، ويفرغ ماءه في فمي. الماء يسيل في فمي بطيئا ولا يمكنني ردّه فلساني معطّل الحركة. أحسّ بالاختناق، فأضطر لابتلاعه. أبتلع الماء باحثا عن الهواء. أبتلع وأتنفس الماء. بطني ينتفخ. الآلام حادّة في أسفل ووسط البطن. وبصدري حركة الرئتين تتثاقل. الماء يعرقل حركة الرئتين، ويمنع دخول الهواء أو خروجه.

ممتلئا بالماء، يحرّرونني من قيودي ثم ينزلونني من فوق المكتب. ممدّدا على الأرض، تزداد الآلام حدّة كلّما حاولت أن أتحرّك. يلتفون حولي. يتطلّعون إلى بعضهم البعض. ثمّ بأقدامهم يقذفون بطني كما الكرة. ينبعث الماء من داخلي عبر كلّ فتحات جسمي، من أنفي وفمي وورائي. أختنق. هل هذا ما يسمونه الموت البطيء؟ ألهث باحثا عن الهواء. لاإراديا، أصارع من أجل نفَس من الهواء. تزداد حدّة آلام البطن، كلّما حاولت التنفس. أقذف الماء من كلّ فتحات جسمي. ترتفع ضحكاتهم، لكنّي لست مهتما بذلك. تتوالى ضربات الأقدام على بطني، فيتسارع خروج الماء الّذي يسدّ قصبتي الهوائية. إنّها لحظة الاختناق. لا أعتقد أنّي سأعود إلى الحياة.

مكوّما على الأرض أدرك أنّي لا زلت حيّا. وليس بمقدوري أن أعرف كم من الوقت مرّ عليّ، وأنا على هذا الحال. أشعر بالبرد. جسدي يتجمّد. لا أقوى على تحريك أطرافي، ولا على فتح عيني. جفناهما ثقيلتان. فمي مفتوح عن آخره يبحث لاهثا عن الهواء. يصدر شخيرا رغم أنّي

مستيقظ.

مستسلما لما أنا فيه، أسمع وقع أقدام تقترب. يمتزج وقع الأقدام بالأصوات. لا أستطيع تمييزها. تتكاثر في أذني. تقلقني. تضغط. فقط لو أستطيع سدّ أذني من هذا الهرج والمرج. قهقهات ترتفع. تقترب أكثر. وسط القهقهات صوت أنثوي. يبدو لي الصوت مألوفا. أخمّن. ثمّ أصارع جفني عيني ليرتفعا قليلا ويمكناني من الرؤية. أصارع لأتأكد من صاحبة القهقهة. لا أعتقد أن تكون هي! ما الّذي جاء بها إلى هنا؟ هل جاءت لأجلي؟ أم لأجل أن تنتقم منّي؟

قلقا ومرتبكا، أرفع جفني عيني قليلا، لكن ضبابا كثيفا يحجب عنّي الرؤية. يعود الجفنان إلى موضعهما. فأعيد المحاولة. الضباب يزداد كثافة. لكنّي لا أستسلم. أغلق عيني اليسرى، وأبقي على الأخرى نصف مفتوحة. ينقشع الضباب قليلا. أرى، لكنّي لا أميّز شيئا. زاوية رؤيتي ضيقة جدّا. أحاول أن أحرّك رأسي قليلا للأعلى، لكن ذلك لن يكون سهلا ودون آلام. أستسلم مصغيا للقهقهات وللحديث الّذي بدأ بينهم ولم أتبيّن منه شيئا.

أستفيق محموما. العرق يحرق بؤبؤتي عيني، كلّما حاولت فتحهما. جدّتي عند رأسي تحفف بمنديل جبهتي ووجهي. وأمّي أمامها تبكي. أخمّن أنّي بالدار، رغم أنّي لا أعرف كيف عدت، ولا متى عدت، ولا كم بقيت فاقدا للوعي.

– لقد استفاق. سيكون بخير.

تقول جدّتي. تتفحص وجهي. تشير بأصابع يدها فوق عيني. ثمّ تضيف:

– إنّه يرى. انظري.. إنّه يحرّك جفنيه.

لا شيء يوحي أنّ أمّي، الّتي تتأوّه لاهثة، تستمع لكلامها. لكن جدّتي تضيف غير آبهة بحالتها:

– لقد فعل الفقيه ما كان يجب فعله، حتّى لو لم تختف آثار الكيّ.

تمدّ أمّي يدا ترتعش. تلامس جبيني بلطف. ثمّ شاهقة، تضاعف من تأوهاتها. تنهرها جدّتي. ثمّ تقول مؤكدة:

- لم أصدّق بعدُ أنّه نجا من العمى.. سأعود للفقيه بعد أسبوع، كما طلب.

لثلاثة أيّام متتالية لم أغادر فراشي. حاجياتي أقضيها في مكاني، في طاس بلاستيكي. أتأ لّم كلّما لامس العرق مكان الكيّ. لم يتوقف جسدي عن إفراز العرق. مبلّلا في ثيابي وفراشي تنتابني لحظات حمّى فأرتعش. ترتفع حرارة جسدي حدّ الاختناق ثم ودون سابق إنذار تنخفض. أشعر بالبرد. كقطعة جليد، أتكوّم في فراشي المبلّل. أسناني تصطك. لا أتمكن من إيقاف حركتها أو خفض الصوت المنبعث منها. أغوص بعدها في كوابيس لا بداية ولا نهاية لها.

على الرّغم من معاناتي، والّتي خرجت منها بندبة على جبهتي فوق عيني اليسرى، فإنّ جدّتي سحبتني من يدي غير عابئة بذلك. ولم تستسلم لتوسلاتي ولا لتوسلات أمّي. تجرني دون أن تلتفت إليّ. تعرف أن مقاومتي ستتوقف بمجرد خروجنا إلى الشارع، (لا يمكنني أن أظهر بمظهر الضعيف أمام أصدقائي، الذين لم يشكوا أبدا في حكاياتي بالضريح) لكنها لا تترك يدي.

ندخل مقصورة الفقيه، الذي بدا منشغلا بكتابة حرز. على فخذه اليمنى وضع لوحة عليها ورقة، وأمامه دواة سماق. كلّما عبأ قلمه (المصنوع من القصب الجاف) بالسماق، ينظر إليّ متطلعا من فوق نظارته السّميكة، ثمّ يواصل كتابة حرزه متجاهلا جدّتي الّتي لم تترك يدي بعد.

أخمّن في الهروب، متأكدّا أنّ باب المقصورة لم يغلق بعد. محاولا أن أخدعها، أرخي أصابع يدي مستسلمة لكفّها وأصابعها الطويلة، لكنّها تزيد من ضغط يدها على يدي بدل أن تحّرره.

يضع الفقيه القلم في الدواة. يأخذ الحرز ويطويه عدّ مرات حتّى صار بحجم الأصبع، ثمّ وضعه تحت اللّحاف الّذي يجلس عليه. يسند اللوحة عل الحائط وراء ظهره. يتفحصني، ثمّ يقوم للباب ويدير المفتاح في القفل. أتتّبع حركاته الثقيلة ومعها أفقد كلّ أمل في الهروب.

يتطلّع إليّ. يقرفص أمامي. يخلع نظارته السّميكة ويضعها جنب اللّوحة. يضع يديه على جبهتي ثم يفحص

عيني. يحرّك سبابته أمام عيني فاضطر للرّمش. يهزّ رأسه ويفرج عن ابتسامة ضئيلة متطلّعا إلى جدّتي، الّتي لم تغفل لحظة عن يدي رغم القفل الّذي دار بالباب. يقول مطمئنا جدّتي:

- انظري.. إنّه يحرّك عينيه بشكل طبيعي.

- لاحظت ذلك.. شكرا لك.

خاشعة، تقول جدّتي جملتها كأنها تؤدي صلاة.

يستدير الفقيه بكتفيه ناحية اللّحاف الّذي كان يجلس عليه ويعدّله. ثم ينظر إليّ مبتسما ويطلب منّي أن أتمدّد عليه. قبل أن أتحرّك من مكاني تجذبني جدّتي من يدي. مستسلما لقوّة يدها أتمدّد باكيا. يحاول الفقيه أن يهدّئ من خوفي بكلمات لطيفة وبابتساماته العريضة. لا تغفل عيناي عن حركات الفقيه. خائفا من الكيّ، من الخنجر المحمّر، أدفع برجلي نحو الفقيه محاولا إبعاده عن وجهي. تصفعني جدّتي. وتبصق على وجهي وتشتمني. يتسلل الفقيه على ركبتيه ثم يعود وبيده اليمنى قلّة طينية. يضعها عند رأسي. متطلعا إليّ، يقول بصوت خافت:

– لا تخف.. سأقرأ فقط.. كن هادئا ولا تفكر في شيء.

يضع الفقيه يده على جبهتي. يتلمسها. يضغط قليلا. يتنحنح منظفا حنجرته. ويبدأ بالقراءة. يقرأ الفاتحة. يقرأها عدّة مرّات. ثمّ يقرأ آيات أخر لا أحفظها. يعجبني صوته. يشدّني إليه. أتتبّعه مأسورا برنته.

فجأة يتوقف عن القراءة. تمنيت أن لا يتوقف. يمسح بيده على جبهتي ووجهي. يملأ طاسا من ماء القلّة. يقدمه لي مبتسما. يطلب منّي أن أذكر البسملة. وبعينيه يشجعني على شربه. فأشربه. أشربه دفعة واحدة. يملأ الطاس من جديد ويضعه بين ركبتيه، ويعود للقراءة. فأعود إلى أسر صوته الرّخيم.

***

تنتابني حالات التقيؤ. أضغط بكلّ ما بقي لي من قوة لإخراج الماء. أحسّ به باردا يتموّج بداخلي. يبطني وصدري. أضغط على مثانتي لأبول. فما يخرج منها إلاّ ماء فقد حرارته ولونه. ليس بمقدوري أن أوقف لهاثي، ولا الشخير المرافق للزفير. أحسّ بلساني يُقتلع من منبته في فمي. أتموّج بجسدي محاولا إيجاد وضعية لتسهيل التقيؤ وتقليل الآلام.

أفكّر في وضعية القط. ربّما تكون وضعية مناسبة لذلك. أقرفص بشكل قط. لكن رفع الرأس يدخلني في حالة من الدّوار. يبدو كل شيء يدور حولي. تزداد سرعة الدوران فيغمى عليّ.

حالات الإغماء تتكرّر، لكنّها لا تطول. أتمنى، لو تدوم أكثر. لو يتوقف كلّ شيء معها وفيها. لو تتوقف هذه الأصوات عن القهقهة. وهذا الصوت الأنثوي الّذي يشعرني بالخيانة، ويفتح ذاكرتي على الأسئلة.

ليس سهلا على المرء، وهو في أسوء حالاته، أن يغيّر من نظرته لحياته السابقة، أو أن يفكّر بإعادة ترتيب كلّ

أجزائها، فلن يزيده ذلك سوى آلاما.

كلّما أستفيق من الإغماء، أجدني أرقبها بعينين نصف مفتوحتين، ومصغيا لصوتها، غير مصدق أن تكون هي.

تقول، وهي ترمقني بنظرة حاقدة:

– كان عليه أن يعترف حتّى لا يعرّض نفسه لكلّ هذا.

– لن يقول شيئا.

يعلق الّذي كان يرافقني بالمستشفى. فتقول مؤكدّة:

– سيعترف. أنا الّتي تعرفه. سيتكلم حين ينهار.

– ينهار؟ وهل بقي فيه شيء لم ينهرْ بعد؟

محاولا أن أستعيد صورتها كما عرفتها أوّل مرّة، أعود بذاكرتي إلى الوراء. إلى لقائنا الأوّل. حين تقاطعنا عند باب بيت العربي المونشو في ذلك المساء الماطر، ويدي تقطر دما.

أتسمّع لنغمة صوتها الّتي لم تتغيّر، وهي تقول مؤكّدة:

- لم ينهر بعد. أؤكد لكم أنّه لم ينهر بعد.

تمشي بخطوات ثابتة بينهم. تنظر إليّ. تشبك يديها على صدرها. ثمّ تضيف:

- لقد عاش زمنا مع الحيوانات، فصار مثلها.

تقترب منّي. تنحني على ركبتيها. تقول لي هامسة:

- لا أعتقد أنّك نسيتني.

أحاول أن أتطلّع إليها. لكنّها تنسحب بسرعة بعد أن داعبت مؤخرتي بكفها الأيسر ثم ضغطت عليها. أتخيّل ضحكتها الساخرة.

أدرك الآن ما ينتظرني.

***

يقدّم لي الفقيه طاس الماء تلو الآخر. مبتسما يسمل ويشجعني على البسملة والشرب. لا شهيّة ولا رغبة لي في هذا الماء ورغم ذلك لا أمانع ولا أتردد في قبوله. بطني ينتفخ. الماء يصل إلى الحلق. ينتظر الفقيه شيئا ما فيقرّب الدلو مني أكثر. يهز رأسه. تختفي ابتسامته ثم يعود لقراءته.

ليس من السهل أن أدفع بالماء وهو يتحجر في الحلق. أتقيأ. أتقيأ في الدلو. يفحص الفقيه القيء بعينيه محركا الدلو. شيء ما لا يعجبه. يتحسس جبيني بيده ثم يسألني إن كنت قد رأيت شيئا. أؤكّد له أنّي لم أرَ شيئا. فيعود لقراءته.

مصغيا لصوته أحاول أن لا أفكر في شيء. لكنّي فجأة أتخيّل نفسي أدخل الضريح المهجور فيتسلّل ورائي شبح أسود يريد اقتلاع عينيّ من منبتها. أصرخ هاربا. يضع الفقيه يده على جبيني. يمنحني طاس ماء. ثم آخر. فآخر. لا يتوقف عن منحي الماء، ولا يتوقف عن القراءة. يشجعني بإشارات من رأسه وعينيه.

أعود للتقيؤ. أتقيأ في الدلو. يتطلّع إليه الفقيه ويحرّكه.

يبتسم. يتوقف عن القراءة وينظر إلى جدّتي. يومئ لها برأسه. يخبرها أن لا خوف عليّ. يتحسس جبيني. يخرج من تحت لحافه حرزا ويضعه في طاس الماء ويخلطه بأصبعه. يقرّب الطاس من فمه ويقرأ بصوت خافت، ثم يتفل فيه ويمنحني إيّاه لأشربه. يبتسم كعادته في وجهي ويشير لي بعينيه أن أشربه.

أشربه متردّدا فأعود للقيء. يندهش الفقيه ويقرّب الدلو من فمي. يفحص القيء بعينه. يحرّك الدّلو عدّة حركات. يقوّس حاجبيه متعجبا. بيديه يمدّدني من جديد. يطلب من جدتي أن تمسك جيّدا بساقيّ. يخرج من تحت اللّحاف عود زبوج رقيق. لا أعرف ما سيفعل، فظهرُ جدّتي يحجب عنّي الرؤية. يسأل:

- من أنت؟

لا أدرك لمن يوجه سؤاله. يعيد سؤاله وهو يتفحصني بعينيه المفتوحتين عن آخرهما. أنظر إليه مندهشا من تغيّر ملامحه. يعيد سؤاله للمرة الثالثة والرابعة ثم يضربني بعود الزبوج على قدميّ. أصرخ متأوها. لكنه لا يتوقف عن الضرب

والسؤال.

أحاول إفلات قدميّ من قبضة جدتي التي بدأت تتراخى. لكن الفقيه يؤكد لها أنّني لا أحسّ بشيء، وعليها إحكام قبضتها لإخراج هذا الّذي يسكنني. فتنظر إليه نظرة استعطاف، وفي نفس الوقت تضغط بما تبقى لها من قوّة على ساقيّ بالرّغم من دموع متقطعة نزلت على خديها.

ترتفع حدّة الآلام بارتفاع الضربات المتتالية. والفقيه لم يتوقف عن سؤاله:

- من أنت؟

لا أدرك ما يعنيه بهذا السؤال الّذي يتكرّر، وما يتوجب عليّ قوله أو فعله لأوقف هذا العذاب. يقول الفقيه لجدّتي أنّ ما يفعله لصالحي وقصد تطهيري.

تحرّر جدّتي قدميّ وتلطم خدّيها. الدم يسيل من قدميّ. يتوقف الفقيه عن الضرب. يسرع لوضع خرقة تحتهما حتى لا ألطخ لحافه. أرى دمي يسيل. يسيل.

غارق في الكآبة وفي الخوف. أتطلّع إليها بنصف عين مفتوحة. لا أرغب في أن تطلّع على نبضات قلبي المتسارعة، إذ خمّنت أنّ حركة يدها الأيسر على مؤخرتي لم تكن إلاّ إشارة منها لما سيأتي. أعترف أنّها لم تخطئ حين أكّدت لرفاقها أنّها تعرفني جيّدا. أتذكر أنّي اعترفت لها مرّة من خوفي الشديد ومن عدم تقبلي للتعذيب الّذي هددوني به. لم أنكر لها أنّ مجرد التفكير في ذلك يجعل كلّ عضلات جسدي تتقلص بما فيها عضلات المؤخرة.

أغيّر من وضعيتي، وأستلقي على ظهري رغم الآلام، مخفيا مؤخرتي عن نظرها. ربّما سينسيها اعترافي.

أحاول أن أفكّر فيما سيحدث، لكن عقلي لا يحتمل التفكير طويلا ولا انتظار الألم، فأتنهد. أتنفس بعمق متفقدا أعضاء جسدي، وأتهيأ لما قد يأتي. لا شك عندي أنّها تريد إهانتي. أستدير قليلا برأسي لأتمكن من رؤيتها. ترمقني بنظرتها. تقترب منيّ تاركة الآخرين يتابعونها بنظراتهم. تقرفص

أمامي. تبتسم. لكن ابتسامتها لم تعد تغريني بشيء. كل شيء تغيّر الآن. الخدعة التي عشتها معها انكشفت. تقول هامسة:

- فكّر فيما سيحدث لك. أقدّر أنّك تدرك جيدا أن لا شفقة ولا رحمة ترجى من هؤلاء، ولا منّي بعد الّذي فعلته معي. عليك أن تخرج ممّا أنت فيه.

أهمس لها بدوري:

- كيف؟ لا سرّ عندي أخفيه عنكم. ولا أعلم شيئا ممّا تقولون.

تضع يدها على كتفي. تضغط بقوّة. تراقب بعينيها رفاقها، ثمّ تقول:

- دعك من هذا الكلام الّذي لا فائدة منه. وصمتك عن قول الحقيقة لن يفيدك. لاشك أنّك تعرف ما ينتظرك الآن.

تبتسم وتقترب أكثر من أذني ثم تهمس:

- لا يهمّني خوفك وقلقك، مثلما لم أكن شيئا مهمّا عندك. قل ما تشاء فلا شيء يبرر فعلتك.

هل عليّ أن أستجديها وأستعطفها، أن لا يحدث ذلك؟ لا أحد يعرف ما أكره وما أخشى غيرها. ليس بمقدوري التوسّل الآن لواشية تكون قد أطلعتهم بكلّ شيء عنّي. غير قادر أن أصدق أن تكون قد خانت ثقتي فيها. ثقة من منحها جسده متأوّها وكاشفا لرغباته. ليس هناك ما هو أكثر إيلاما من اغتصاب لحظات حميمية من عمرك. كم أتمنى لو أغلق عيني وأفتحهما مكتشفا أنّ خطأ ما وقع في الزمن. في التاريخ. التاريخ المحتجز خلف الجدران. وفي التقارير السريّة. وأنّ ما أحياه الآن ليس إلاّ وهما أو حلما مفزعا في ليلة حمّى عصيبة.

***

مرتجفا وخائفا أستفيق من حلم مفزع. مرّة أخرى، كما الأحلام السابقة، هاربا من رجال ملثمين، أتسلّق جبلا تعانق قمّته ضبابا كثيفا، ثمّ حين ألتفت ورائي لمراقبتهم ولأتأكدّ من مدى ابتعادي عنهم، أهوي في الفراغ. فراغ

سحيق. أحاول الطّيران، لكن جسدي يهوي ويقترب من الأرض فيرتفع صراخي.

بلمسات خفيفة على جبيني، تطمئنني أمّي، وتمسح عرقي بكفّها. أتطلّع إلى وجهها. عيناها غائرتان بهما آثار دموع لم تجف بعد. تحاول، أمام دهشتي، أن تبتسم في وجهي. أبادلها ابتسامة، لا أدري كيف تمكنت من رسمها على فمي للحظات. إذ، هاربا من دمعتين تسللتا في بطء شديد من عينيها المحمرتين، يواجه بصري وجه الفقيه. يبتسم، ويهز رأسه، ثم يستدير محافظا على ابتسامته نحو جدّتي، الّتي تجلس جنبه.

أحرّك قدميّ متفقدا حالتهما. ملفوفتان في قطعتين من منديل أخضر مزيّن بأزهار حمراء، اختلط لونها بلون دمي. دم متخثر يُصعّب من مهمتي الّتي أتلهى بها عن عيني الفقيه، الّذي يتطلّع إليّ باسما أو غامزا بعينه اليسرى. يقول لجدّتي:

– أعتقد أنّه نال عقاب فعلته ولا ينقصه إلاّ التراب لاكتمال الشفاء.

مندهشا وقلقا من كلام الفقيه، أتطلّع لجدّتي، الّتي تهز رأسها وتتفحص وجه أمّي، الّتي لازالت يدها اليمنى على جبيني تمسح عرقي غير مهتمة بحديث الفقيه، الّذي يضيف مؤكدا:

- العلاج عقاب. طهارة لكلّ جسد غوى.

يعتدل في جلسته ثم ينظف حنجرته ويواصل حديثه:

- بعد علاجه بالماء والهواء والنار، لا ينقصه إلاّ التراب لتكتمل طهارته من الإثم، لذلك، حين تلتحم جروح قدميه سأطهره بالتراب. تراب الضريح ليتآلف معه.

- حين يتمكن من الوقوف على قدميه سآتي به إليك. شكرا لك وحفظك الله.

تقول جدّتي، وهي تودع الفقيه عند باب الغرفة.

في الغد لففت جدّتي قدمي بقطع من قماش وقطن وحملتني على ظهرها إلى الفقيه، على الرغم من معارضة أمّي الشديدة، الّتي لم تر أنّي شفيت. لم تأبه لتوسلاتها ولا

لدموعها. مقتنعة أنّ ما تفعله هو الصواب، تقول جدّتي:

- لِم أؤجل شيئا بإمكاني فعله اليوم؟ من يضمن أنّ الفقيه سيعيش يوما آخر؟ لا يمكنني أن أنتظر حتى شفاء قدميه. بإمكاني حمله على ظهري وإنهاء علاجه مادام لم يبق له سوى المسح بالتراب.

لم يتفاجأ الفقيه حين رأى جدّتي عند باب مقصورته. يقف. يساعدها لوضعي على الأرض ثم يقول باسما:

- كنت متأكدّا أنّك لن تتأخري بالمجيء به، لذلك أحضرت تراب الضريح مساء أمس.

يتحدث الرجال الثلاثة بأصوات مختلفة، ومن حين لآخر يتطلعون إليّ. في نظراتهم الساخرة أدرك أنّي موضوع حديثهم. أحاول أن أتتبع حركات شفاههم وأيديهم. لا شكّ أنّهم يتحدثون عن علاقتي برشيدة. هل يعرفون كلّ شيء؟ هل أخبرتهم بحميمياتنا؟ بكلّ ما حدث بيننا؟ هل حدثتهم عن

رغباتي؟ عن آهاتي وتأوهاتي؟ لا أعرف لماذا لا أحب أن أصدّق ذلك. ربما لأنّ ذلك لا يزيدني إلاّ إحباطا واكتئابا.

أدرك الآن، أنّ حياتي كلّها لم تكن إلاّ سرابا ووهما. ما معنى حياة بكلّ رغباتها وذكرياتها، حين نكتشف في لحظة ما أنها كانت مبنية على خدعة؟

أحاول أن أقنع نفسي بأن علاقتي بها لم تكن غير علاقة عابرة. علاقة جسدين أرهقهما الظمأ. ولا أنكر أنّي تشبّثُ بالحياة بعد أن تشبّثُ بها. بجسدها الّذي منحني ما لم تمنحني إيّاه جميلة. منحني رغبة الاكتشاف. اكتشاف اللذة والمتعة في أقصى صورهما. وأنا الحالم دوما بامرأة تقاسمني فراشي وسيجارتي وكأس نبيذي.

صحوت ذات صباح على فتنة اكتشاف جديدة. لم أعد أجد أو أتذكر أيّ أثر من تلك الآثار الحسية الجميلة المخدرة، الّتي كانت تجرني إلى جسدها كل ليلة. مقتنعٌ أنّ الجسد الّذي أمامي يتهالك. يتقادم ولن يتجدّد. لا شيء أنتظره منه. لن يمنحني غير صورة مطابقة لصورة أمس. لم يعد

خالقا لأحلامي. لا رغبة لي فيه. لن يغريني بشيء.

متعبا أتحرّر من بين ذراعيها. لا قدرة لي على البقاء مكبّلا بينهما، كما كنت في لقاءاتنا الأولى.

- أشعر بالاختناق.

تصحو من دهشتها على كلامي. متذمرة تبحث عن ثيابها. ثمّ تقول بعصبية:

- طبعا.. تشعر بالاختناق بعد أن قضيت أشياءك الحيوانية.

أحاول أن أبتسم لها. أن أشرح لها أنّ ذلك يؤلمني فعلا، لكني لا أعرف كيف أموّه مشاعري. ولا كيف أحسّن كلامي. لكنها تزداد غضبا. تقول، وقد بحّ صوتها:

- إلى هذا الحدّ؟ أنا أخنقك؟ لم تقدّر مشاعري ولا تضحياتي.

تبكي. تضع يديها على رأسها وتبكي. لا أجد ما

أفعله. أغادر. أجلس بين قبرين وأشعل سيجارة. يضيق صدري ويتجمّد رأسي. بي رغبة للبكاء والمواء. أقدّر أن لا فائدة من التفكير الآن. أتطلّع إلى بريق عيون القطط، الّتي التفت حولي.

تفاجئني بقامتها أمامي. أتطلّع إليها. تضع يديها على خصريها. ترمقني بنظرات غاضبة. تقول وقد تغيّر صوتها:

- سأغادر ولن أعود.

أخفي عيني بين يدي. لم أطلب منها البقاء. ولم أقل شيئا. تتنهد عدّة مرات. تضرب قدمها اليمنى بالأرض ضربات متتالية. ولما لم أرفع عيني، أدركت رغبتي. وكاحتجاج أخير منها، ترسل تنهيدة طويلة، ثم تغادر وهي تقول كلاما لم أرغب في سماعه، ولم أهتم به. أتفل عقب سيجارتي، الّذي كاد يحرق شفتي، عند قدمي ثم أدوسه ضاغطا بقوة.

ممدّدا على لحاف، ومستسلما للفقيه، أنتظر العلاج. على الرغم من ترك باب المقصورة مفتوحا، فلا أفكّر بالهرب، فقدماي لا تقويان على حمل جسدي.

يتطلع الفقيه إلى جدّتي ويشر لها برأسه، فتغادر المقصورة. ثمّ يتسم في وجهي، ويطلب منّي أن أفكّ أزرار قميصي. يغمس يده اليمنى في كيس ثم يمسح جبهتي ووجهي. يُدخل يده إلى الكيس ويمسح صدري عدّة مرات، وهو يتمتم. ومن حين لآخر يتفل في يده. يبعثر ترابا على رأسي وعلى كامل جسدي. ينفض كفيه. يغلق الكيس ثم يطلب منّي أن اغلق أزرار قميصي. أخمن أن العلاج اكتمل، فاسأله:

– سيدي، هل هذا التراب هو تراب الضريح؟

– نعم.

يقول ويهزّ رأسه مبتسما. فأساله من جديد:

– هل دخلت الضريح؟

– طبعا.

– يعني أنّك دخلت ولم يحدث لك شيء؟

– لن يحدث لي شيء. أنا فقيه.

قال وابتسم، ثم سلّم بيديه لصاحب الضريح (*)، وطلب منّي أن أسلّم كذلك، لأنّنا، مثلما شرح لي، اعتدينا على خلوته ورغبته.

تعود جدّتي للمقصورة. ثمّ تحملني على ظهرها لتعيدني إلى الدّار، بعد شكرها للفقيه، الّذي أكّد لها خلاصي من لعنة الوليّ صاحب الضريح.

في طريق العودة، تلاحظ أن قطة تتبعنا. ترى في ذلك فأل شرّ، فتبسمل وتلعن الشيطان الرّجيم، ثمّ تتظاهر بأنّها ستركلها لإبعادها، لكن القطة تُصرّ على أن تتبعنا.

تبدأ جدّتي بتحذيراتها لي من دخول الضريح مرّة أخرى. ثمّ تطلب منّي، أن أبسمل وأن ألعن الشيطان الرجيم، الّذي يكون قد تلبّس وظهر في صورة قطة.

أرقبها تدخل وتخرج. تتفقدني وتتفقد القطة. لا تجد تفسيرا لوجود هذه القطة، الّتي تبعتنا ثمّ اعتكفت قرب الباب. تحاول أمّي طمأنتها بأن ذلك من باب الصدفة لا غير، وأنّ

---

*التسليم لصاحب الضريح: يكون بوضع اليدين على الصدر كإشارة لتسليم الأمر للولي.

القطط تملأ الحيّ. لكن جدّتي تؤكد أن ظهور هذه القطة في هذا الوقت بالذات له علاقة بدخولي الضريح المهجور. تقترب منّي فتسألني عن تفاصيل ما فعلت وما قلت بداخل الضريح. لم أجد ما أخبرها به. لكنّي، ودون تفكير، طلبت منها أن تطعمها.

لم تهضم جدّتي كلامي، لكن أمّي تستحسن الفكرة. تقوم وتقدّم لها طاسا به خبزٌ يابسٌ مغموسٌ في قليل من الحليب.

تقول مبتسمة:

- لم ترفع القطة رأسها عن الطاس.

تخرج جدّتي لتتأكد بنفسها. وحين تعود، تأمر الجميع بمعاملة القطة كواحد من العائلة.

***

ممدّدا على الأرض لساعات أنتظر، مقتنعا أنّي لا أملك غير الانتظار. ليس بمقدوري فعل شيء إزاء هذه

الوضعية الّتي أنا فيها. لست مالكها. إنه أمر غير محتمل أن أضطر لانتظار ما يقررون فعله. عاجزا، مثل حشرة برية داخل قفص، أكوّم جسدي متوهما الموت. لكن ذاكرتي، أو ما تبقى منها، تنتفض ساخرة منّي.

العجز. لا شيء يعذبني أكثر من شعوري بالعجز. كم تمنيت أن أفقد عقلي هروبا من هذه المعاناة. لم أتعلّم طوال حياتي مسايرة الأمر والاستسلام له كقدر. أفكّر دوما في رمي عالم أفكاري ومعه كلّ ذكرياتي.

مدركا، أنّ مشكلتي وقضيتي هي عقلي، عشت على الهامش. بعيدا عنهم وعن كلّ منطق. المنطق الموجب للتفكير. لكن، أيّ منطق فيما أنا فيه الآن؟ وفي التهم الموجهة لي؟ لم أنكر أبدا منطق الجريمة والعقاب، لكن ما جريمتي الّتي تستدعي كل هذا العقاب؟ الجريمة الّتي بُنيت على فعل شخصي لا علاقة له بالآخرين، لكن العقاب كان حقيقيا. عقاب بلا جريمة. هذا ما أراه. أتمنى لحظتها، لو أنّي أجرمت فعلا لأشعر بالارتياح. هل يمكن أن أعترف، بعد هذا، أنّ للمنطق وجهين؟ منطق الحاكم ومنطق المحكوم.

يجرونني من قدمي إلى وسط القاعة. أسمع أصوات ركلاتهم، فأحمي وجهي بكفّي. لكن ركلاتهم تصيب خصري وفخذي. تتوقف الركلات فلا أسمع غير تنهداتهم. أفتح أصابع يدي لأسمح لعيني بالرؤية. يقفون عند قدمي. يتطلّعون لبعضهم البعض. يختفي أحدهم عن مجال بصري لحظة، ثمّ يعود وبيده الكرسي الخشبي. يضعه عند رأسي. يبتسم ساخرا ويومئ لي بغمزة من عينيه. أفهم أنّه يريدني أن أجلس. لا أفكّر في المقاومة، إذ ليس من المنطق ولا العقل أن أقاوم وأنا في هذه الوضعية.

أجلس على الكرسي الخشبي، وأنتظر حذرا. أخشى صفعاتهم على وجهي، الّتي تشعرني بالإهانة أكثر من أن تشعرني بالألم.

يقترب منّي، الّذي رافقني بالمستشفى، ثمّ يهمس في أذني:

- هل تعرف ما ينتظرك الآن؟

أكتفي بتحريك رأسي نافيا علمي بما ينتظرني. يهزّ

رأسه، ويمصّ شفته العلوية، ثمّ يهمس:

- سنخيّرك.

يسود صمت. يدور حولي دورتين ثمّ يواجهني واضعا يديه على كتفيّ. يقول:

- نعرف ما تخشى، لذلك سنخيرك.

يبتسم ساخرا، ثمّ يرتفع بجسده عنّي دون أن يحوّل بصره عنّي. لا شك أنّه يحاول معرفة وقع كلامه عليّ. أجاهد كي لا أبدو قلقا وخائفا، ومحاولا إخفاء نبضات قلبي المتسارعة، أجول ببصري في القاعة.

أفكّر. من المؤسف أن تكون قد أخبرتهم حتّى ما أخشى. وما أتأسف له أكثر أنّ الوضع الآن، صار متأخرا جدّا. كيف أنّي لم أتفطن لخيانتها؟ ولم أحتفظ لنفسي بأسراري، على الرّغم من أنّي تعلّمت أن لا أثق في أيّ شخص مهما كان، بعد زيارتي الأولى لهم؟.

***

أتمكن، في اليوم الرابع، من الوقوف على قدميّ. وعلى الرغم من بعض الآلام نتيجة تقلصات عضلات القدم والفخذ، أخطو إلى الخارج لأتفقد القطّة. لم تُبْد انزعاجا وهي تراني واقفا أمامها. تتحسّس قدميّ، وتلعق سروالي بلسانها. تدور حولي عدّة دورات. تتطلّع إليّ، ثم تغادر بخطوات متثاقلة. أتابعها بعيني إلى أن تختفي.

لا أنكر أنّي ظللت أنتظر عودتها في صباحات أيام عديدة عند باب الدار حاملا طاس الخبز اليابس الممزوج بالحليب، لكنها لم تظهر، رغم أنّ جدّتي هيأت لها مكانا عند الباب. بدا أمر اختفائها غريبا لنا جميعا، عدا أبي، الّذي يرى أنّنا نخرّف بتقديس قطة بريّة، ونجعل من ظهورها واختفائها حكاية أسطورية.

– ثمّة أشياء لا نقدر على تفسيرها ولا على فهمها.

يقول الفقيه لجدّتي بعد أن استفسرته في أمر القطة. ثمّ يوصيها بأن تحسن إليها، إن هي عادت إليها، اتقاء لشرّها

أو تودّدا منها. تحمل جدّتي معها حكاية القطة سنوات. وكلّما التقت بقطة سلّمت.

شيء ما يربطني بها ويربطها بي. لا يمكنني أن أفقد ثقتي في هذه القطة، فقط لأنّها أوصلتني إلى ضريح مهجور، حذرتني منه جدّتي. بداخلي أقتنع، أنّه ليس لديّ ما أخسر، وليس لي مكان آمن بعد ما حدث لي أمس، فأقرّر الاختفاء به من عيون المكتب الثاني.

الآن، لا أحبّ أن أفكّر كيف تكون حياتي، إذ لست مستعدا للشعور بالقلق، مثلما لست مستعدا لضياع نشوة هروبي من أيدي المكتب الثاني، وبمبيتي في الضريح.

مزهوا بنفسي، أستطلع المكان رغم معرفتي السابقة به. لكنّي لا أجرؤ على الابتعاد كثيرا. أقف متطلّعا للقبور، وسط الحشائش اليابسة وأشجار السّرو الباسقة. يلفت نظري كثرة قبور، لم تُزيّن، ولم يُكتب عليها شيء.

أخمّن أنّها لمن ماتوا بفعل الوباء. الوباء الّذي لم يخرج عن الحيّ السّفليّ، لذلك ستظلّ قبورا بترابها، وشواهدها

أحجار مصفحة، فلن تزيّن بالرخام الأبيض أو الزّليج لإظهار الانتماء الطبقي لأصحابها، ولن يُكتب عليها بخطّ مغربي جميل تلك الجملة المميّزة لقبور الأغنياء: يا واقفا على قبرنا ادْعُ لنا بالرحمة.

أجدني دون تفكير، أبحث على قبر أمّي. لا أملك شيئا لمعرفته غير حدسي. مقتنعا به، أقف عند كلّ قبر لحظات مستشعرا دليلي الرّوحي أن ينتفض.

متعبا وحزينا، أعود للضريح، إذ لا شيء انتفض بداخلي. عند عتبته أقرفص متطلّعا للسماء. أجهد نفسي لرؤية وجه أمّي. لكنّي أشعر أن حاجزا سقط بيني وبينها. هل هي غاضبة منّي لأنّي عدت لهذا المكان؟ أم لأنّي تركتها ترحل وحيدة؟

أفكّر، وأقرّر بداخلي، واعدا، أنّي سألحق بك يا أمّي.

***

الآن، وكلّما رجعت بذاكرتي إلى الوراء، يعاودني الألم.

ألم حيّ. بإمكاننا أن نتخيّل أو نتصوّر ما نشاء إلاّ الألم. الألم كحقيقة. الحقيقة الّتي عشتها وأعيشها وحيدا في صمت، والّتي حوّلتني مع الزّمن لناقم من نفسي ومن جسدي. وإذ، لم أجد طريقا للنّسيان، فأحاول دوما، موهما نفسي، أنّ الألم رغم آثاره المرضية قادني إلى إنسانيتي.

لم أتوقع أن يحدث ذلك. وأنا الحالم بالحريّة كقيمة لا يصادرها أحد. كان عليّ أن أقول رأيي، وأن أحتجّ على وضع لم يكن مناسبا لي، معتقدا أن الصمت خيانة وجبن. لم أفكّر في العواقب. ليس غباء منّي بقدر ما هو عجز عن فهم الآخر وولائه وشعاراته. الآخر الّذي يرى ما لا نراه. ويفكّر بغير ما نفكّر.

أعرف أن صوتي لن يذهب أبعد من أذني، لكني أحتجّ. أحتج كتعبير أنّي أفعل ما عليّ فعله. كفعل أنّي حيّ. لا أبحث عن تبرير الفعل ولا تعظيمه، بقدر ما أبحث عن راحتي. راحة نفسي. الرّاحة الّتي تحوّلت إلى معاناة. معاناة عاجز. وجع مزمن. هل بإمكاني أن أتحمّل كلّ هذا؟

ناسيا، أنّ جسدي يحتاج لأكل وشرب، أتساءل، لمَ أنا هنا؟ لمَ قيّدوا يديّ وراء ظهري، ووضعوا على رأسي كيسا لا يسمح بالرؤية؟ لمَ تركوني بهذا المكان الشديد الظلمة، الّذي لا أعرف كيف جئته؟ ولا أعرف إن كان زنزانة أو غرفة؟

محاولا أن أقاوم عجزي وعدم قدرتي على فهم ما يحدث لي، أتكوّم في مكاني وأضغط بكلتا يدي المقيدتين على الأرض، ثمّ أصرخ بصوت عال. تراودني فكرة أنّهم ألقوا بي هنا ونسوني. أزيد من صراخي الّذي تحوّل إلى بكاء. أبكي. أبكي عجزي.

أسمع صرير باب يفتح. ثم يغلق. خطوات أقدام تقترب منّي. أحاول كتم صوت بكائي. يقول وهو يشدّني من كتفي محاولا رفعي عن الأرض:

- إنّه يبكي ولد الزنا.

تصلني لكمات على وجهي وعلى بطني، وركلات على مؤخرتي في نفس الوقت. لا أتمكن من التقاط أنفاسي. فأفقد وعيي.

أستفيق على صوت يأمرني بالاستيقاظ، وماء يُسكب على جسدي، مكتشفا أنّ رأسي لازال في الكيس. لا أرى شيئا، لكنّي أحس بعينيّ ثقيلتين وبآلام حادّة على كامل جسدي.

- زده ثم هيّئه. أريده أن يتمنى الموت ولا يدركه.

ينسكب الماء على كامل جسدي دفعات. أخمّن أنّهم يسكبونه بدلو. أتجرأ وأسال:

- لمَ أنا هنا؟ ماذا فعلت لكم؟

تصلني ركلات متتالية على البطن والصدر.

- ألا تعرف لمَ أنت هنا؟ كلّ ما فعلته ولا تعرف....يقول، ثمّ يشدّني من كتفي ويهزّني بقوّة. أشمّ رائحة دخان في فمه. يحررني من قبضة يده قائلا:

- سنرى رجولتك.. لا تقلق.

***

مساء، تتلّهى القطط بالصعود والهبوط على قبة الضريح في صمت. أجلس عند المدخل، وأشبك يدي حول ركبتيّ وأفكّر. إلى متى سأظل بهذا المكان؟ وإلى متى سأظل متخفيّا من أعوان المكتب الثاني؟ وهل بإمكاني أن أعيش وحيدا بين القطط، ومعزولا عن الناس؟ أجول بنظري فاحصا المكان من جديد. بدا لي موحشا ومخيفا. بداخلي أقرّر أن عزلتي لن تكون دائمة.

مع مجيء اللّيل، يصلني صوت جدّتي وهي تناديني. تنتفض كلّ القطط. يتصاعد مواؤها حتّى يفقد صوت جدّتي صداه. أبدأ في الركض مبتعدا عن الضريح. أدخل المقبرة. أختفي وراء شجرة سرو، مراقبا المكان.

تدور جدّتي حول الضريح، ولا تدخله. أخرج من مخبئي. تضمّني بين ذراعيها. تقبّلني. وتتفقد وجهي. ثمّ تمسك بيدي راجعة إلى الدّار. تقول هامسة:

- عرفت أنك بالمقبرة، وخشيت أن تعود إلى ضريح السيّد.

يتوجّب عليّ أن أكون حذرا في كلامي، فجدّتي لن يهدأ بالها حتّى تعرف كلّ شيء عن غيابي ليلة أمس. أتردّد في إخبارها عمّا حدث لي، وعن مبيتي بالضريح. أخشى أن تبدأ رحلتي مع الفقيه من جديد، فألجأ إلى الصمت. نكمل سيرنا بخطى متسارعة. ندخل الحيّ، الّذي بدا هادئا على غير عادته. العلامات لم تمح بعد من مداخل البيوت. وبعضها لازالت الأقفال على أبوابها. خائفا من الحجر، أحاول إفلات يدي من يد جدّتي. تستشعر ذلك فتزيد من ضغط أصابعها. فأستسلم متّبعا سرعة خطواتها.

تشدني تلك العلامة عند باب الدّار. أتوقف أمامها، فتضطر جدّتي للتوقف هي كذلك. تقول، وهي تحاول جرّي إلى الداخل:

- لا تهتم لها. لا أحد سيجرؤ على المجيء عندنا.

- لكنهم أخذوني أمس إلى المستشفى.

مندهشة من كلامي تجرّني بقوة إلى الداخل.

متجاهلة، أبي وأخي الجالسين وسط الدار، واللّذين وقفا للسّلام عليّ، تسألني ولم تحرّر يدي بعد:

– من أخذك؟ ولماذا؟ ماذا حدث؟

– لا أعرفهم. لكنّهم أخذوني إلى المستشفى القديم.

– وماذا فعلوا بك؟

– حقنوني، وطلبوا منّي أن أنتظر، لكنّي خفت فهربت.

تطلق يدي، ثمّ تضرب بكفيها على فخذيها، وهي تستفسر:

– هربت؟

– نعم هربت. وجئت إلى الدار فوجدت الباب مقفلا فاختبأت بالمقبرة.

تقاطعني:

- لماذا هربت إلى المقبرة؟

- لأنّي لم أجد مكانا أختبئ فيه منهم.

- هل تبعوك؟

أهزّ رأسي. فتتطلّع إلى أبي مليّا، ثم تأمره أن يذهب في الحال ليخبر الرّوخو الفسيان.

***

عاريا، عدا رأسي الّذي مازال في كيس يحجب الرؤية، ومقيّد اليدين والرجلين إلى كرسيّ خشبي، أنتظر متألما. وما يزيدني إيلاما، عدم قدرتي على رؤية وجوههم. أسمع فقط وقع أقدامهم وهم يتحركون، وأنفاسهم، الّتي تبعث روائح الدخان.

يقترب واحد منهم. يشدّ حلمة صدري بأصابعه، ثم يضع عليها كماشة ونفس الشيء على أذني. أتأوه. فيضحك قائلا:

- ليس بعد. لم تر شيئا. ستطير إلى السماء

السابعة.

يتعالى الضحك. ثمّ تمرّ لحظة صمت، قبل أن أبدأ في الارتعاش. جسدي يرتعش بقوّة. يرتفع وينخفض رغم القيود. لا أستطيع كتم صراخي وتأوهاتي. آلام حادّة في كلّ جسدي الّذي يتقلّص. أحسّ بهذا التدفق المهلك للتيار الكهربائي. لا أعتقد أنّ حلمة صدري وأذني ما زالتا في مكانيهما. لا يمنحونني وقتا لالتقاط أنفاسي حتّى يعيدوا الكرّة.

في مرّات عديدة أفقد وعيي. وكلّما أستفيق، أترجى وأستعطف. أبكي صارخا ومتأوها. لكنّي لا أنال غير ضحكات ساخرة تزيد من آلامي ومعاناتي. ليس بمقدوري أن أتحمّل.

ألجأ إلى دموعي، الّتي لا تسيل إلاّ حين يتوقف تدفق التيّار الكهربائي، لكن لا يراها أحد. أبكي داخل ظلام الكيس، الّذي يحجبني عن جلادي، ويزيد من صعوبة تنفسي. لا أنكر أنّي أتمنى الموت. لكنّي أعرف أنهم لا يريدونه لي. يستهويهم التلذّذ بآلامي.

يقترب منّي. يبدأ في فكّ وثاقي، وهو يهمس في أذني:

– الآن عدْ إلى بيتك، وفي الصباح سيتم ترحيلك مع أسرتك. لا تهتّم بأحد، ولا تتحدّث باسم أحد.

لا أقول شيئا خوفا من إثارة غضبهم، فأهز رأسي موافقا. لكن صوتا آخر يؤكد محذرا ومرهبا:

– لو خرجت عمّا نقوله، سنعيدك لزيارتنا، ولن تحلّق في السماء فقط، بل ستبتلع هذه.

يضع بين يدي زجاجة فارغة. أتلمسها وهو يقلبها بين يدي.

– هل تعرف كيف تبتلعها؟

أهزّ رأسي نافيا. يقول ساخرا:

– ستبتلعها من مؤخرتك.

تدوّي كلماته وضحكاته في أذني، فتتقلّص كلّ أعضاء جسدي. فيضيف هامسا:

– لم نرغب في ضياع مستقبلك ولا رجولتك. نرجو أن تقدّر ذلك.

لا أجد ما أقوله غير هزّ رأسي موافقا.

يلبسونني ثيابي المبللة. ثمّ يركبونني سيارة. أقدّر أنّها سارت لأكثر من ساعتين. ينزلونني. يفكّون قيد يدي، لكن رأسي ما زال في الكيس. تصلني لكمات على الوجه وركلة على حجري. أسقط متأوّها. أسمع انطلاق السيارة بسرعة.

أنزع الكيس عن رأسي. أتنفس بعمق غير مصدق أنّي حرّ. أتطلّع للمكان وقد غشيه ظلام الغروب. أدرك أنّي بباب المقبرة، ليس بعيدا عن الضريح. عليّ أن أسترجع أنفاسي. أن أفكّر فيما حدث لي وفيما سيأتي.

هل نُعذَّب على رأي ؟ هل نعاقب ونعاني كلّ هذا لأنّنا رفضنا وضعا؟ لكن من هم هؤلاء الجلادون، الّذين يعاقبوننا على ذلك؟ وأين كنت؟ كم دام حجزي؟ يوما، أم يوميْن؟ كلّ ما حدث لي كان في الظلام. الظلام الّذي يحبون.

أنتظر أن يتسلّل الظلام أكثر. لا أقدر على مجابهة أهل الحيّ بصمتي. أفكر أن أصمت. لا أنكر، أنّي أخشى العودة إلى الظلام. ولا أحد عانى ما عانيته. ثمّ، من سيصدّق حكايتي؟.

***

يعود أبي محمّلا بالحكايات. حكايات الحيّ السفليّ. يرتشف قهوته ويدخن سيجارته ويحكي. نجلس، أنا وأخي، قبالته، ونستمع له لما تبقّى من اللّيل. لا تجد جدّتي مانعا في بقائنا معه، فحكاياته، على الأقلّ، تنسينا أمّنا. هي الليلة الأولى الّتي نجتمع فيها جميعا عداها. يقول أبي، موجها كلامه لي ولجدّتي:

– لم تروا كلّ ما حدث. كان الموت بالحيّ يأخذ من يشاء، حتى الأطباء والممرضون. مسكين الطبيب الهندي لم يتفطن لمرضه حتى مات. قيل أنّه أسلم ونطق بالشهادتين لحظات فقط قبل أن يفارق الحياة، لذلك قرّر الرّوخو الفسيان دفنه بمقبرة المسلمين. طبعا لا أحد يملك القدرة على الرفض

أو المعارضة خاصة بعد أن أفتى إمام الجامع الكبير بوجوب دفنه مع بقية المسلمين. الله يرحمه ويغفر له.

نهزّ رؤوسنا. ونسأل الرحمة والغفران للطبيب الهندي. وقبل أن يواصل أبي حديثه، تسأله جدتي مقاطعة:

– وهل ظهر الإمام؟

– ظهر منذ أيّام فقط، ليخطب في الناس. لقد أكدّ أنّ كلّ من مات بالوباء، فهو شهيد، بمن فيهم الطبيب الهندي. لا أحد يعلم أين كان كلّ تلك الأيّام. لقد تغيّر كثيرا.

– تغيّر؟ كيف؟

تقول جدّتي مستفسرة.

– لم يعد يرَ الوباء عقابا إلهيا، إنّما ابتلاء. ابتلاء من الله. ابتلاء على الصبر. وما يحيّرني، أنّه صار يمدح السلطات والمسؤولين ويشكرهم على كلّ ما فعلوه لمصلحة النّاس.. حتّى أنّه جعل شكرهم من شكر الله.

- لابد أن شيئا حدث للإمام؟

تقول جدتي متعجبة ومتسائلة. لكن أبي يقوّس حاجبيه ويمص شفتيه، ويواصل حديثه:

- ربّما. لكن لا أحد يمكنه تأكيد ذلك. فالإمام نفسه، لم يقل شيئا عن اختفائه، عدا أنّه كان مريضا ومحجورا عليه هو الآخر. وقد تكفّل به الطبيب الهندي.

يرتشف أبي قهوته، ويأخذ أنفاسا متتالية من سيجارته، ثم يكمل:

- سمعت أنّ الروخو الفسيان أمر أن يظلّ الوباء سرّا، حتّى لا تشوه سمعته عند مسؤوليه المركزيين، وقد استشار الطبيب الهندي في حرق الموتي بدل دفنهم. وكان يتوقع منه أن يقبل بذلك، لأن الطبيب من طائفة تحرق موتاها، مثلما يقولون. لكنه رفض ذلك رفضا قاطعا، وقال للروخو، أنّه سيكتب لكلّ المنظمات الصحيّة والإنسانية العالمية زيادة عن السلطات المركزية. يقولون، أنّ الروخو رأى في كلام الطبيب تهديدا.

- لا أعتقد أنّ الروخو، ولا أحد يعرفه مثلي، سيسكت عن ذلك.

تقاطع جدّتي أبي، الّذي يرتشف قهوته ويمص شفتيه مطولا، ثم يقول:

- كلّ من يعرفه يؤكد هذا الكلام. وقد سمعت أنّ موت الطبيب لم يكن عاديا أو بسبب الوباء.

يسكت أبي. يحاول أن يخفي عينيه المغرورقتين بالدموع. يتنهد، ويمسح على خديه بيديه. ثمّ يشعل سيجارة. يأخذ أنفاسا متتالية. ثمّ يضيف:

- صار الجميع يخشى الروخو. لا أحد من المسؤولين المحليين يجرؤ أن يعارضه ولو في الرأي. يقولون أن معارفه من المسؤولين المركزيين لا يتخلون عنه مهما فعل.

يصمت من جديد. يأخذ أنفاسا من سيجارته، ثم يواصل موجها كلامه لجدّتي:

- لذلك لم أجرؤ على مخالفته والوقوف ضده

حين تمّ الحجر عليكم. خاصّة، بعد أن أخبرني بما فعلتِ به أثناء زيارته لكم، وتهديدك إيّاه بمكاتبة كل معارفك. إنّه يطمح أن يرقى إلى منصب مركزي.. لقد أكدّ لي اليوم، أن لا أحد يقترب من الدّار، وأنّه سيعاقب أولئك الّذي تجرؤوا على المجيء دون علمه.

***

أتسلّل من الضريح مسرعا الخطى. لكنّي أجد صعوبة في السّير. قدماي تفقدان تناسقهما، فيختّل توازني. أرقب مشيتي في هذا الظلام الحالك، حتّى لا أسقط، فيما قلبي تتسارع نبضاته. أسمعها. هل أنا خائف؟

يتضاعف خوفي كلما اقتربت من الحيّ. من مسافة مائة متر أو أكثر عن ساحة الأبطال، يتفاجأ سمعي بهرج ومرج رجال. أتوقف. لا أتبيّن من هرجهم ومرجهم غير ضحكاتهم. يتحتم عليّ أن أغامر وأقترب أكثر من الساحة. أنزوي عند المدخل الوحيد للحيّ مراقبا ومتصنتا.

بوسط الساحة نار ملتهبة، التف حولها رجال

يتدفؤون. وجوههم تشع من فرط لهيب النار. أعتقد أنّهم لازالوا بملابس عملهم. لا شك أنّهم ينتظرون الصباح، ليعودوا لإتمام مهمتهم، الّتي جاؤوا من أجلها. فمن سيوقفهم؟ هل تقدمت تلك الجرّافات في الحيّ أثناء غيابي؟ هل تمّ ترحيل السكان؟.

قلقا وخائفا، أنعطف شمالا حتّى لا يراني أحد. أتصبب عرقا. ألحظ أن الحيّ لم تدخله بعد الجرّافات. فبيوت الصفيح عند مدخل الحيّ لازالت كما كانت. أبتهج لذلك. لكنّي أفكر فيم يمكنني قوله لأهل الحيّ؟ هل أخون ثقتهم وأختفي هاربا من مواجهتهم، فأتركهم لقدرهم؟ أم أخبرهم بم حدث لي؟ لكن ماذا يمكنني إخبارهم به إن كنت لا أملك تفاصيل ما حدث لي؟ ولا يمكنني تقديم دليل واحد على ذلك؟ لا أعتقد أنهم سيصدقون حكايتي؟ لا شكّ أنّهم سيرَوْنها، رغم صحتها، حيلة منّي لخذلانهم والتراجع عن كلامي في حقّنا في البقاء بهذا الحيّ ومقاومة الجرّافات، بعد أن استمعوا إليه. ربّما كان الأمر ليبدو مختلفا لو أنّي رأيت وجوههم أو عرفت المكان الّذي أخذوني إليه. إذْ ليس من

السهل أن تقنع شخصا آخر بأحداث لا تملك دليلا عليها. كما ليس من السهل أن لا تعرف وجه من آلمك وعذّبك. وليس بمقدوري أن أعرف أو أؤكد أنّي الوحيد الّذي زار المكتب الثاني، لذلك أقرّر أن لا أنسحب رغم ما عانيت وما سأعانيه، لأنهم لن يتخلوا عن فكرة تحويل الحيّ إلى منتزه سياحي بهذه السهولة. قرار لا يتعلق بالبحث عن بطولة ما، بقدر ما هو مسايرة وضع دخلته مرغما، فلن أخرج منه مرغما. ثمّ لا يمكنني السكوت عن تجريدي من بيتي ولو كان صفيحا. عليّ أن أحتج حين يتعلق الأمر بحقّي.

شارحا الوضعية الّتي نحن فيها، أمرّ من بيت إلى بيت، (غير مهتم بتحذيرات المكتب الثاني وغير مهتم بسرد حكايتي على أحد قد يصدقها أو يكذبها)، والجرّافات بمزنجراتها تنتظر خروجنا عند مدخل الحيّ الوحيد. لم يكن أمامنا من خيار غير التزام بيوتنا، حتّى نعرف مصيرنا. وإلى أين يتم ترحيلنا؟ لا أحد يملك الإجابة عن ذلك. وليس من السهل أن تثق في وعود أشخاص يجلسون على كراسي جرّافاتهم وشاحناتهم، ولا يفكرون إلاّ في مسح حيّ بكامله، تنفيذا لأوامر جاءت

من سلطات مركزية، لأنّه يشوّش منظر المدينة، وينتج ويُؤوي كلّ أنواع الفساد. الحيّ الذي لم تهزمه الكوليرا من سنوات، دون غيره من الأحياء ليتحوّل إلى الحيّ إيكس (X)، بعد أن تُركت تلك العلامات تزيّن مداخل أغلب البيوت.

مع الصباح، أقف مواجها جرّافة شهباء عند مدخل الحيّ، وهي تتقّدم لإزالة بيوت الصفيح. أقول صارخا أنّي لن أتزحزح من مكاني حتى لو مرّت على جسدي مزنجراتكم. يخرج بعض الشباب، أغلبهم من أصدقائي، من بيوتهم ويلتحقون بي. يلتفّون حولي. يصرخون في وجه الجرّافة. يتكون حائط بشري يسدّ المدخل. تتقدّم الجرّافة نحونا، وتضخم صوت محركها لإخافتنا. نتراجع قليلا عن أماكننا إلى الخلف، لكننا لا نغادرها. تحاول أن تتقدّم أكثر. أنبطح على الأرض ورأسي باتجاه الجرّافة. تتوقف على بعد خطوتين منّي. لا أتحرّك رغم هدير المحرك الّذي يصم أذنيّ. أتشجع في البقاء على الأرض، حين أرى السدّ البشري يهوي على الأرض مثلي. يتدخل رجال، من خلف الجرّافة، لإزاحتنا عن الطريق. نبدأ بالسباب والشتم. تتشابك الأيدي. تغادر الجرّافة إلى ساحة

الأبطال قبل أن يتحوّل المكان إلى ساحة قتال.

قبل أن نترك أماكننا، أقول:

- ليس أمامنا إلاّ أن نلتزم ببيوتنا الّتي رغم كرهنا لها، فهي على الأقل تسترنا. ولا نغادرها إلاّ لبيوت أحسن منها.

*** _

أصحو على يد جدّتي تربت على رأسي بهدوء. أفتح عينيّ على صوتها المبحوح وهي تخبرني بأنّ الوقت صباح، وعلينا الذهاب إلى المقبرة للترحم على أمّي، ثمّ تدير رأسها يمينا لتخفي عينيها. تتركني أتقلّب في فراشي، وتدخل المطبخ. لكنّها لا تتوقف عن مناداتي وتنبيهي للنهوض ووجوب الاسراع لأن أبي ينتظرنا عند باب المقبرة.

أترك فراشي، الّذي بدا لي دافئا، غير راغب في ذلك، محاولا استرجاع وجه أمّي وابتسامتها الدائمة في كلّ الصباحات، لكن جدتي كانت تقف عند الباب تنتظرني، باسطة يدها نحوي.

في طريقنا إلى المقبرة، أنا وجدّتي، خيّم علينا صمت رهيب، ينضاف إلى صمت الحيّ الّذي لم يستيقظ بعد. أحاول أن أتلّهى بعدّ العلامات الّتي تزيّن مداخل وواجهات معظم بيوت الحيّ. تلك العلامات الّتي صيّرتها زنزانات مغلقة على أصحابها بأقفال من الخارج. تمسك جدّتي بيدي، وتضغط عليها، لأحسّ بوجودها. لكنّي أواصل العدّ بعيني متجاهلا يد جدّتي الخشنة. تدرك أنّ بصري لازال معلّقا مع العلامات، تحرّني بيدها لأسرع الخطى وأنسى العدّ.

تقطع جدّتي طول سور المقبرة متجنبة ضريح الوليّ المهجور. تصلني تمتمتها. أفكر أنّها تدعو للموتى بالرحمة والمغفرة، أو تقرأ بعضا من أوردتها الكثيرة، الّتي كانت دوما تحاول تحفيظي إيّاها.

عند باب المقبرة نتفاجأ بصفوف من النساء والرجال والأطفال مجتمعين في حلقات. نتوقف برهة. تتطلّع جدتي بعينيها في كلّ الوجوه، ثمّ نسير بهدوء ونعبر الباب الكبير حيث يقف أبي وبجانبه أخي متكئين على سور المقبرة.

يسبقنا أبي دون أن يتفوه بكلمة واحدة ويكتفي

بإشارة برأسه. فنتبعه. لم تحرّر جدتي بعد يدي، بل شعرت بأصابعها تضغط على كفي. أمّا أخي فقد سار متخلفا وراءنا في صمت.

لم يدم سيرنا طويلا حتّى توقف أبي أمام قبر من رخام. رفع كفّيه إلى السماء وبدأ يتمتم. ومثله فعلت جدتي، بعد أن تفحصت القبر بعينيها ومسحت على شاهديه بيديها، ثم أخي الّذي بحلق فيّ، فأدركت أنّه عليّ أن أفعل مثلهم. رفعت يديّ، لكن نظري ظلّ معلقا إلى الشاهد قبالتي، المزين بأهلّة خضراء على حوافه الأربع، وبوسطه كُتبت تلك العبارة المألوفة بخط أحمر جميل، يا واقفا على قبرنا ادْعُ لنا بالرحمة والمغفرة.

يرتفع صوت أبي بالبسملة وهو يتفحص وجوهنا، فننضم للتلاوة معه. ثم نقرأ الفاتحة جماعيا بصوت مسموع، ومع كلمة "آمين" يمسح أبي بكفيه على جبهته ووجهه ويغادر المقبرة محاولا أن يخفي دمعات تسرّبت إلى خدّيه.

تقرفص جدّتي عند القبر. تضع يدها اليمنى عليه وتبدأ بمناجاة أمّي. ثمّ سرعان ما تتحوّل المناجاة إلى نشيج وبكاء. يقترب أخي منها محاولا تهدئتها فتضمه إليها باكية.

أتقدم بخطوتين لأرى ما كُتب على الشاهد الآخر. فأكتشف أنّه مزيّن هو الآخر بأهلّة حمراء على حوافه، أمّا وسطه فقد حمل السطر الأوّل البسملة بخط كوفي جميل، وتحته: "هذا قبر المرحومة آمنة بن منصور" وبالسطر الثالث: 1943 - 1973.

تتطلع إليه وتطلب منه أن يقرأ القرآن عند رأسها. ينظف صوته ويبدأ بالترتيل لكن صوته لا يخرج كما تعودنا أن نسمعه. يغلبه البكاء فيتوقف عن الترتيل.

***

عند مجيء اللّيل، يتحوّل الحيّ السفليّ إلى ساحة مطاردة، وأتحوّل معه إلى مشتبه به يبحث عنه بعض الرجال. رجال بعصيّ ومسدسات معلّقة تحت أكتافهم أو مثبتة بأحزمة سراويلهم خلف ظهورهم. يتوجب عليّ أن لا أقع بين أيديهم رغم أنّ وجوههم مكشوفة. متيقنا أنهم سيسلمونني لأولئك الذين عذبوني، أولئك الّذين لم أرَ وجوههم، فيتملكني الخوف. وحين أتذكر تهديداتهم، يقشعر كلّ جسدي

وتتضاعف نبضات قلبي.

معتقدا أنّ الترحيب بي سيكون كبيرا، أتنقل من بيت إلى بيت بالحيّ باحثا عن ملجإ آمن أقضي به ليلتي، وأمنح جسدي فرصة استرخاء وطرد ما تبقى به من تيار كهربائي لازال يقلص عضلاتي. أكتشف أن لا أصدقاء لي ولا جيران، فقد كان الخوف والقلق، في كلّ بيت طرقت بابه وعلى كل الوجوه الّتي أطلّت. لم أحاول مناقشة تبريراتهم المتلعثمة والمعتذرة عن استضافتي، بعد أن انتشر الكلام وكثرت الإشاعات عن تعذيبي وعن خيانتي للبلد والمتاجرة بآلام الفقراء لصالح بلد آخر. متفهما خوفهم من ردّة فعل المكتب الثاني، الّذي لاشك أنّه أرسل كلّ مخبريه، ويكون قد جنّد آخرين من داخل الحيّ، أفكر في مغادرة الحيّ، رغم أنّي لست متأكدا من نجاح مهمّتي.

أتسلل، دافعا رؤوس قدمي إلى الأمام عبر الأزقة الضيقة الّتي غاصت في الظلام. وخائفا أن تبذر مني صيحة مخزية، أمسك أنفاسي. يخيّل إليّ أنّي أسمع أصواتا ووقع أقدام، من خلفي ومن أمامي. ليس بمقدوري أن أتأكد من أنها هدير

في طبلتي أذني فقط. ومع كل خطوة، صرت أخشى أن تخذلني عضلاتي المكهربة ومعدّتي الفارغة وحلقي الجاف.

أفكر. ثمّ متنهدا بعمق، أقرّر أن ألجأ إلى بيت العربي المونشو، الّذي لن يخذلني ولن يبيعني للمكتب الثاني، على الرغم من كلّ ما حدث بيننا. لست جريئا ولا شجاعا، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ ماذا أفعل وأنا لا أملك جناحين للطيران بعيدا؟ فليس أمامي غير الهروب ثمّ الهروب.

قلقا أطرق الباب. أسمع وقع قدميها. يزداد قلقي حين يدور المفتاح في القفل، وتتسارع نبضات قلبي. أنسى هروبي وما كنت فيه قبل لحظات. تستيقظ أحلامي القديمة. أحلام متجذرة. لكن، أدرك أنّه يتوجب عليّ الآن أن أخوض معركة لإقناع العربي المونشو عن سبب مجيئي. لاشك أنّ أخباري بكلّ إشاعاتها قد وصلته. أتنفس بعمق وأتهيأ للكلام.

أمام تلك الشهقة الصارخة لجميلة، الّتي أثارت قلقا وصوتا مبحوحا قادما من داخل "الحوش" متسائلا عن الطارق، أندفع إلى الداخل دون استئذان، وقد ضاع لساني

في فمي. خافضا رأسي، أقف أمام العربي المونشو كجواب لم يكن ينتظره. فاحصا وجهي بنظرته البعيدة، يشير بيده اليسرى الوحيدة إلى مكان عند قدميه على سريره كي أجلس. يحاول أن يعدل تموضع جسده، ثم هادئا يسألني عن سبب مجيئي في هذا الوقت المتأخر من الليل. لست متيقنا أنّه لا يعرف السبب، ورغم ذلك أخبره أنّي لم أجد مكانا آمنا في الحيّ آوي إليه. يحاول أن لا يبدُو مقتنعا بكلامي، فيظلّ يتفحصني، منتظرا منّي تبريرا لهذا الإزعاج. أعرف أنّه يتطلّع لسماع كلّ ما حدث لي، وحتى ما لم يحدث لي، فالاستماع للآخرين ظلّت هوايته الوحيدة، منذ أن قرّر اعتزال الناس في بيته، لا يهمه في ذلك صدق الحكاية من كذبها مادام يجد من يحدثه لطرد قلق الأرق، الّذي يعذبه أكثر مما عذبه أصدقاؤه في المكتب الثاني.

***

في الوقت الّذي أجتاز فيه مدخل الحيّ وحيدا، بعد أن تركت ورائي جدّتي تتحدث إلى بعض الجيران، أكتشف أنّ بيوتا كثيرة لازالت مقفلة من الخارج، وقد رُسمت علامة

باللّون أحمر فوق العلامة الأولى، والّتي كانت بالجير الأبيض فقط. ما يحيّرني وليس بمقدوري فهمه هو، لم تغيّر لون تلك العلامات؟ ربما، لأنّ أصحاب هذه البيوت لم يشفوا من الوباء بعد. لكن الطبيب كان قد أخبرني، أنّ جميع المصابين قد تمّ نقلهم إلى المستشفى القديم، وقد كنت، فيم أعتقد، الاستثناء الوحيد الّذي ظل يعالج بالبيت.

لا شك أنّ أمرا آخر قد حصل، وليس مجرد وضع علامة بالجير الأبيض، ثمّ نسخها بالأحمر. فمن الأبيض إلى الأحمر ثمّة قرار ما. ثمّة حكاية ما. أسحب نفسي مستكشفا لما تبقى من البيوت، الّتي وُضعت عليها العلامة الحمراء، وعلى الرغم من قلتها، فإن أبوابها لازالت مقفلة.

متجاهلا نظرات المارة، الّتي ترمقني باستغراب، أطرق كل الأبواب المقفلة بابا بابا، وأنتظر أن يصلني صوت من الداخل، لكنّي لا أسمع غير صدى الطرق.

عند بيت صديقي رشيد ياماها، أطرق الباب بعنف، ثمّ أسند أذني للباب وأصغي، ثمّ أحبس أنفاسي حدّ

الاختناق. تخرج امرأة من بيت مجاور (لا أذكر أنّي رأيتها من قبل في هذا البيت الّذي أعرف كل ساكنيه)، وتخبرني، أن لا أحد بهذا البيت، بعد أن نقلوا كلّ العائلة إلى المستشفى القديم. ثمّ تختفي وراء الباب، ولم تترك لي فرصة للاستفسار.

أنسى جدّتي الّتي أخرتها ثرثرتها مع الجيران، وأنجرف مع هواجسي وشكوكي. متسكعا في كلّ أزقة الحيّ أبحث عن أصدقائي لأسألهم عن أحوالهم وعن حال رشيد ياماها. لكن أغلب من التقيتهم لا يعرفون أكثر ممّا أعرف، لذلك ليس أمامي سوى الذهاب للمستشفى القديم لتأكيد أو نفي هواجسي وشكوكي، الّتي بدأت تسيطر عليّ بشكل دائم.

خائفا من الحجر ومن حرّاس المستشفى أتسلّق السور، وأتطلّع للساحة الفارغة إلاّ من سيارة إسعاف بدون عجلات (كانت مرفوعة عن الأرض بواسطة قطع من الخشب وقد اتلف جزء كبير من الهلال الأزرق الّذي يزيّنها ومن كتابة لم يبق منها غير سعا)، وسيارة بيجو 504 سوداء تابعة للمكتب الثاني (يقودها دائما الروخو الفسيان) متوقفة عند الباب الكبير، وثلاث عربات جرّ يدوية. لكن نظري ظلّ

معلقا على ذلك المكتب ذي الباب الأزرق الخشبي، الّذي قضيت به نصف ليلة محتجزا بداخله قبل أن أتمكن من الهرب.

لا أدري ما الّذي جعلني أعتقد أن صديقي رشيد، الّذي كنّا ندعوه ياماها لسرعته الفائقة، سيمكث بهذا المكان أكثر منّي. لا شك أنّه، لو جيء به إلى هذا المكان، يكون قد رفع قدمه اليمنى قليلا عن الأرض، ثمّ كمن يضغط على دواسة دراجة نارية ينطلق برجليه وفمه يصدر صوتا مقلدا محرّك "ياماها"، ويداه ممدودتان قليلا للأمام كمن يمسك بمقودها. أتخيله قد انطلق هاربا فلا ينظر إلى الوراء أبدا، ولا يتوقف إلاّ حين يشعر أنّه صار في مأمن. لكن إلى أين يمكنه أن يذهب إذا لم يعد إلى بيتهم؟ ليس له من مكان آخر غير بيت خالته بوسط المدينة، والّتي لم يحبها قط، على الرغم من أنّها اعتبرته دائما ابنا لها. أيمكن أن يكون قد لجأ إليها؟

***

لا رغبة لي الآن في الكلام. لاجئا إلى سكون مؤقت، ومنتظرا بداية استجواب طويل مقابل ليلة آمنة، وخافضا

رأسي نحو الأرض هاربا بعينيّ من نظراته القويّة والفاحصة. أعرف أنّ لا شيء من كلامي وملامحي وحركاتي ستمّر عليه دون تمحيص وتدقيق. وبداخلي أتمنى أن لا يحدثني عن جميلة وعن صحة تفكيره وطلبه بابتعادي عنها، لأنّ ذلك سيشعرني بالندم على كلّ شيء. الندم على أفعالي وقراراتي. أشعر أنّي لستُ أنا. خائفا وهاربا ومختبئا في بيت بدا لي آمنا. ثم خائفا، أفكر من جديد في الهرب والاختباء من هذا الوجه، الّذي أمامي ومن أسئلته، الّتي لم تبدأ بعد. سخيفا يبدو لي الآن الأمر. أمر الخوف والهرب والاختباء.

سرت في كامل جسدي رعشة، حين سمعت وقع قدميها. ألقي بنظرة خاطفة لأتأكد من قدومها. من أنّها هي. جميلة. لكنّها تتوقف. لم أعد أسمع وقع أقدام. يخالجني شك من أنّ نظراتي أوقفتها قبل أن أراها، فهل تراني هي؟ كيف ستكون ردّة فعلها؟ هل تبتسم؟ أم تكتفي بشهقة كما فعلت حين فتحت لي الباب؟ لا شك أنّ شهقتها كانت ردّة فعل على مظهري المزري ووجهي المتورّم. أنتبه أنّي لم أتطلّع إلى مرآة لأرى ما أنا عليه. لكنّي أعرف أن وجهي منتفخ

ومكدوم، وقد يتعفن في تلك الجراح عند الحاجبين وفي الأنف والشفتين.

أنسى آلامي الّتي تعاودني كلما تحسست وجهي أو أماكن في جسدي، بعد أن نسيت جوعي وعطشي، لأتوسل إلى نفسي، حالما، بالنظر إليها. والتمتع بوجهها الّذي حرمت منه شهورا. هل ملكت غير وجهها كمتعة في حياتي؟ ألم تكن حلمي ورغبتي في الحياة؟ يتحتم عليّ، في هذه اللحظة بالذات، أن أرفع وجهي. أن أتطلّع إليها. أن أبتسم لها كما ابتسمت لها دائما. ليس عليّ الآن، أن أفكر في قرار آخر غير هذا. هل يحقّ لي رفع رأسي والنظر في وجهها كأنّ شيئا لم يحدث؟ لا أعتقد أنّها غفرت لي خطيئتي. هل فقدت ثقتها بي؟ يخفق قلبي خفقانا عظيما. أقضم شفتي السفلى بأسناني وأمصها بلساني فتنزف دما. أتلهّى بتنظيف شفتي، وأنظر بطرف عيني إلى العربي المونشو، الّذي كان يتطلع إلى ابنته ويبتسم ابتسامته الماكرة كأنّه يريد أن يؤكد لها صحة تخميناته بشأني، أو هكذا بدت لي، ثم أحوّل بصري نحوها. تقف على بعد خطوتين بيديها صينية عليها إبريق قهوة أزرق اللون

وفنجانان وإناء زجاجي للماء. تضع الصينية على مقربة منّي، لكنّها لم تنظر إليّ. ثمّ تستدير وتغادر الغرفة. أتتبعها ببصري حتى تختفي وراء الباب. متحسرا أعيد نظري إلى الأرض. أدرك أن وقتا عصيبا قد مرّ، وأنّ جبالا من جليد قد ذابت. أفكر. هل يتوجب عليّ أن أتمهل؟ هل الزمن كفيل بإصلاح كلّ تصدّع؟

محاولا كسر الصمت، يتنحنح المونشو ويعدّل من تموضع جسده. تلامس قدماه ظهري فاضطر إلى تعديل جلستي. يشير بعينيه إلى صينية القهوة. أقرفص أمامها. أقدّم له فنجان قهوة من غير سكر. مبتسما يرتشف من قهوته. ثمّ يمص شفتيه ويعصرهما مع بعضهما البعض. يشكرني لأنّي لم أنس أنّه يشرب قهوته من غير سكر، رغم أنّي لم أدخل بيته منذ شهور. وكيف لي أن أنسى ذلك وقد سمعت حكايته مع التعذيب ومرض السكري عشرات المرات. فلم أستغرب، ولم أتعجب من إعادته لسرد حكايته بكل تفاصيلها، كلما سمحت له الفرصة لذلك.

***

عند باب المدينة، البوابة الشمالية والأقرب للحي السفليّ، صفّت المتاريس ووقف عندها بعض الرجال. أحدهم يحمل سلاحا، فيما تجمّع الآخرون يدخنون. أتفحصهم محاولا أن أتعرّف على أحدهم، لكن الوجوه بدت لي غريبة وماكرة.

لم يخطر ببالي أن أجازف وأعبر البوابة، فليس من المعتاد أن توجد المتاريس، ولا أن يحرسها رجال، بينهم واحد بالسلاح. أتريث. هناك ما يشغل بالي وأريد معرفته. ماذا يفعل هؤلاء الرجال؟ ولماذا وضعت هذه المتاريس؟ ليس لي من جواب غير الانتظار. أنتظر لأرى حين يعبر أحد ما البوابة داخلا إليها أو خارجا منها. لكن زمنا طويلا مرّ ولا أحد عبر. أقرّر أن أذهب إلى باب قناوة، على الأقل هو المدخل الأكثر اتساعا ويسمح بدخول السيارات والعربات والراجلين.

مبتعدا أكثر عن الحيّ السفليّ، أركض بمحاذاة سور المدينة القديم. لاهثا ومتخفيا، أقف وراء أشجار التين البري، الّتي نبتت عند أطرافه والتصقت به. أحسّ بنبضات قلبي ترتفع وتتسارع في غير انتظام. واضعا يدي على صدري أتحسس القلب، وضاغطا على القفص لأسترجع أنفاسي. لم يطل

مقامي بهذا الباب، الّذي غابت عنه المتاريس لكن بوسطه وقف أربعة رجال، بعد أن رأيت أن كل من يعبره يتوقف ويتعرض للمساءلة والتفتيش. لم أر أحدا يحمل سلاحا، لكن، يمكن أن يكون متخفيا في مكان ما في الداخل. متيقنا أنّ شيئا ما يحدث بالمدينة، لكني لا أعرف ما هو بالضبط، لذلك لن أجازف وأحاول العبور أمام هؤلاء الحراس.

مستغلا انشغال الحراس بتفتيش سيارة بعربة من نوع بيجو 404، وبعد أن أنزلوا السائق ومرافقه وأوقفوهما بجنب السور،، أجتاز على رؤوس أصابع قدميّ من أجل الوصول للجهة الأخرى من الباب. أواصل سيري قاطعا الحيّ الإداري، الّذي سكنه إطارات المدينة من موظفين وأساتذة بعد رحيل المعمّرين الفرنسيين، الّذين بنوا هذه الفيلات وبعض البنايات الإدارية ذات سقوف بالقرميد الأحمر وزيّنوا المداخل بتماثيل لحيوانات ونساء عاريات، خارج المدينة القديمة فوق سهل مرتفع لأشجار الزيتون. ألتفت ورائي من حين لآخر خائفا أن يراني أحد ما ويستوقفني مستفسرا عن وجودي بهذا الحيّ، الّذي لا يدخله أحد بدون مبرر خاصة نحن أبناء حيّ

الصفيح، وظلّ حكرا على وجهاء المدينة وأبنائهم.

متذكرا أن السور به بعض المنافذ، الّتي يستغلها مهربو المواد الغذائية والمخدرات للحدود الغربية، المطلّة على واد بوحمو، الّذي يكون قد بدأ يجف من مياهه في هذا الفصل. وحتّى أبلغه عليّ أن أقطع مقبرة اليهود الكبيرة، لم أتساءل بداخلي هذا المرّة عن سبب كبرها واتساعها مقارنة بمقبرة المسلمين. فلم يعد ذلك مهما الآن، بعد أن غادر المدينة آخر اليهود منذ أيام فقط، خاشيا على نفسه من اندلاع حرب عربية اسرائيلية جديدة. ذلك المكان الكئيب والبارد، الّذي يوحي بالعقم بعد أن هجره اليهود تاركين وراءهم بعضا من ذاكرة وجودهم. أشعر، وهو حالي دائما كلّما دخلت هذه المقبرة، بأنّه المكان الأكثر بثّا للرعب فأسرع خطاي بين ممرات القبور حذرا من أن أطأها بقدمي فاضطر أحيانا للقفز عليها، كأنّني في سباق جري.

حين خرجت من المقبرة قرفصت على الأرض لاسترجع أنفاسي وأنسى تلك القبور العالية والفخمة من الرخام. أدخل الوادي، وأتتبع مجرى النهر ذي المسلك الوعر

نظرا لترسبات الطين والصلصال. أرفع سروالي إلى الركبتين حتّى لا يتسخ، وأفكر جديّا في خلع حذائي المطاطي. لم يطل سيري كثيرا حتّى وقفت أمام آثار طريق يرتفع نحو السور. لا شك أنه يفضي إلى منفذ. وقفت ومددت قامتي محاولا رؤية نهاية المرتفع، لكني لم أر شيئا، فسرت مجهدا متتبعا آثار السير. تبين لي أنها طريق لا تسلك إلاّ نادرا.

***

أتطلع إلى وجهه فلا أرى غير ابتسامته التي لم يفقدها أبدا. يرتشف من قهوته ويمص شفتيه مصدرا صوتا، ثم يضع الفنجان بتأن على المائدة. يتطلّع إليّ مبتسما. ثم يتنحنح منظفا صدره وحنجرته. أدرك أنّه يتهيأ للكلام. أفكر أنّه سيسرد حكايته الطويلة مع النظام للمرّة الألف أو ربما للمرّة المليون بنفس الطريقة وبنفس الكلمات كأنّه يرويها، كاشفا عن أسرار خطيرة، للمرّة الأولى وبتفاصيل دقيقة عن اعتقاله واستجوابه وتعذيبه، ويتردّد كعادته دائما في ذكر تفاصيل أخرى كالوقت والمدّة، مرجعا ذلك إلى حجم التعذيب والمعاناة إضافة إلى السريّة التامة لأجهزة النظام.

يبدأ الحديث عن عزلته في بيته كسجين من غير حرّاس. العزلة، الّتي اختارها بإرادته، حتى لا يواجه الناس الّذين لم يفهموا أبدا موقفه، رغم كلّ الاغراءات الّتي عُرضَت عليه ليدخل الصّف ويكّف عن معارضته لنظام ساهم في إقامته. يؤكد أنّه وجد نفسه وحيدا يسير ضدّ التيّار، وكل الأصابع تشير إليه أينما ذهب. وقد اتهمه كثير من الناس بمن فيهم بعض المقربين إليه بالخيانة. خيانة الوطن ورفاق السلاح وكل التاريخ الّذي صنعه لنفسه كمجاهد ومناضل وكسياسي. معترفا أن تصديق رواية النظام، الّذي يحسن الترويج وصناعة الرأي حسب الطلب والرغبة، آلمه كثيرا وأكثر من أيّ شيء آخر.

فبقدر ما يكون المرء متأكدا من إخلاصه لوطنه، فإنّه ليس من السهل أن ينقلب على رفاقه، الّذين تقاسم معهم جزءا كبيرا من حياته الأكثر حلكة وقهرا. لكن عليه أن يعرف متى يكون ذلك، والمهم أن يعرف لأجل ماذا. لا أحد ينكر أن الرجال يتغيرون بفعل الزمن. ففكرة الغد والمستقبل تجعل المرء أكثر جبنا من دجاجة تنساق إلى مذبحها، وتجعل فعل

الانقلاب على المبادئ أمرا مشروعا وسهلا، فيغيب معه كل ندم أو تأنيب للضمير.

يعترف أنّه لم يكن شخصا مهما في هرم السلطة لأنّه لم ينل قدرا كبيرا من التعليم، لكن نفوذه كان قويا. نفوذ صنعه بإخلاصه وشجاعته وتفانيه في الخدمة. يؤكد أنّه لم يرفض أيّة مهمة في حياته، على الرّغم من صعوبتها أو استحالتها، وحتّى تلك المهمات الأكثر قذارة. ليس من السهل أن تعيش وضعا (كما هو وضعه الآن)، ولا يشعرك ذلك ببعض النّدم. الندم الناتج عن الثقة العمياء. ندم مؤلم ومقلق حين تكتشف في لحظة ما، أنّك لم تكن سوى بيدق أو حصان مُروَّض للعبور.

يتنهد. يبتسم. يهز رأسه، لكن لا يخفض عينيه أبدا، وهو يتحدث. وعليّ أن أتطلع إليه وأتفحص وجهه، وأصطنع الدهشة الغائبة مع الحكاية للمرة الأولى، بحاجبي وعيني وأحيانا بفتح فمي، حتّى يدرك أنّي أستمع إليه وأهتّم لحكايته، الّتي أسمعها للمرة السادسة أو السابعة، وربّما سأسمعها مرّات أخرى إن جمعتني به الصدفة.

يؤكد لي أنّه لا يسرد لي حكايته، أنا بالذات، من

باب التفريج عن نفسه أو لإظهار بطولة ما، فقط لأنّه يرغب أن استخلص العبرة وأن لا أشعر بالندم أبدا عن فعل بدا في وقته مقنعا وواجبا. ثمّ رافعا أصبعه يحذرني، لكن نبرة صوته تتغيّر بعد أن خالجته بحّة تحولت إلى حشرجة يصعب معها الكلام، فاسعفه بالماء، فيشرب ثمّ يمسح شفتيه بكفّه ويفحصني بعينيه ثمّ يقول:

– احذر أن تكون بيدقا، فلا شيء يدوم.

أخفض عيني إذ لا يمكنني مقاومة بريق عينيه، ولست متأكدا أنّ البريق كان بسبب دموع ترغب في الانفلات من محجريهما.

***

حذرا أعبر المنفذ ممرّرا رأسي أوّلا، ثمّ باقي جسدي. لم يكن منفذا ضيقا مثلما خمنت، بل فتحة في السور بطول وعرض باب منزل، يسهل منها العبور. متجاوزا السّور، أفحص المكان يمينا وشمالا، فلا أرى شيئا تحت مرمى نظري قد يقلقني. لا أشك في أنّه مسلك آمن. فلم أسمع أبدا أنّ

أجهزة النظام ورجاله قد ضبطوا مهرّبا واحدا بالمدينة.

أسير مجهدا عبر أزقة ضيّقة للمدينة القديمة، فلا أثر للحياة فيها غير أطفال ثلاثة يلعبون بكرة حمراء من الجلد. هي المرّة الثانية الّتي أرى فيها كرة قدم حقيقية، بدل الكرات الّتي كنّا نتفنن في صنعها من بقايا الجوارب. أقترب منهم، حالما أن ألمسها. أن أقذفها بقدمي وأعرف وقع ذلك. يتوقفون عن اللعب ويتطلعون إليّ باستغراب، وقد وضع أحدهم الكرة تحت إبطه الأيمن، وكأنه تفطن لرغبتي في مداعبتها. أحاول أن أتجاهلهم وأسرع قليلا من سيري، لكني ألتفت إليهم بعد بضع خطوات. فاكتشف أنّهم عادوا للّعب بعد أن أدركوا ابتعادي.

هاربا من أشعة الشمس الحارقة لوجهي ومحاذيا جدران المنازل حيث الظلّ لا يتعدى خطوتين، أسير متعبا وقد عاودتني آلام البطن وارتفاع حرارة جسدي. العرق يسيل على جبيني وتحت ابطي، ثم أحس به باردا على كامل جسدي. تتقلص خطواتي وتخف، ويرتفع لهاثي. تلتصق شفتي بلساني وقد أعياهما البحث عن لعاب يرطبهما.

أرغب في شربة ماء. لأجل الماء أسرع في مشيي، ثمّ أنطلق جريا، لكنّي أتوقف مع الخطوات الأولى، فنبض قلبي ارتفع بشكل مدهش حتّى سمعته واعتقدت أنّه اخترق قفصي الصدري وخرج منه. أتحسس صدري بكفي اليمنى، وأجلس مسندا ظهري على جدار منزل مخفيا رأسي في الظل في محاولة لاستعادة توازن أنفاسي. لحظات تمر وأنا ممدّد على الأرض أتلطف ببرودتها، ثمّ لا أنزعج في التكوّر بكامل جسدي لتبريده، وأستجمع في فمي ريقا لزجا وأبلعه بصعوبة كبيرة.

أستجمع ما تبقى من طاقتي لأواصل سيري وقد بدأ الظل في الاختفاء متسلقا الجدار. أشعة الشمس تحرق عيني كلما حاولت رفع رأسي. لم يبق أمامي كثيرا لأصل لبيت خالة رشيد ياماها. لا أفكر الآن في غير الماء. الماء. أتخيله بين عيني يتلألأ. ثمّ يسيل شلالا في فمي وحلقي وعلى كامل جسدي. لم أهتم كثيرا لهذه الشوارع الخالية، ولهذه البيوت المغلقة بالرغم من انعدام تلك العلامة [X] من جدرانها.

***

الآن، بدأ الأمر يتضح لي أكثر فأكثر. تتكشف وضعيتي وأفهمها. ثمّ إنّي أستطيع تمييز نبرة صوته. صوت أب يخيّرني بالبقاء عنده ما شئت من الزمن، فلا أحد يجرؤ على دخول بيته وتفتيشه للبحث عنّي، فاللعبة لها قواعدها. يبتسم قائلا أنّ، الأسد إذا نام، فمن الغباء إيقاظه أو إثارته. لكن عليّ أن أدرك أن الاختباء والنّوم قد يطولان، وعليّ أن أقدّر ذلك، وأتعلم قتل رغبة الاشتياق للنور والتطلع للشمس. أمّا إن كنت لا أرغب في العيش كسجين بين أربعة جدران مثله، فبإمكاني الهروب إلى ما وراء الحدود، وبداية حياة جديدة مع توديع حياتي هنا كيف ما كانت.

لا أنكر أنّي فكرت في ذلك، خاصة وأن الحدود ليست بعيدة ويمكن بلوغها في ساعات ثلاث مشيا على الأقدام، لكنّي لا أحمل ما يثبت هويتي، ولا أعرف أحدا وراء الحدود، ثمّ لا أريد أن أصير بيدقا في يد آخرين هناك، فتصحّ كل التهم الّتي نسبت لي. أستبعد ذلك، لأني ببساطة، أخشى السقوط في ما هربت منه. ثم أعرف، مثلما يعرف هو كذلك، عن بعض أصدقائه الّذين اختاروا الهروب للخارج كيف

الصقت بهم تهمتا خيانة الوطن والعمالة للأجانب، فلم يجدوا كيف يدافعون عن أنفسهم، ولا كيف يتحولون إلى مواطنين عاديين.

يشيع الدم في وجهه. أعتقد أنّه شعر بتلك السعادة الّتي تغمرنا حين نعثر على شيء ثمين فقدناه، واعتقدنا أننا لن نعثر عليه أبدا. فهل كنت ذلك الشيء الثمين عنده؟ لقد فهم كلامي على أنّي سأمكث عنده. وفعلا هو ما فكرت فيه، على الأقل لهذه الليلة، وربّما لأيّام أخرى، فليس لي مكان آخر ألجأ إليه. ثمّ، في داخلي، أرغب في إعادة علاقتي بجميلة، أو على الأقل، توضيح علاقتي برشيدة ودوافعها.

يخالجني شك في أنها ستصدّقني أو تتفهم أسبابي ودوافعي رغم أنّي كلّ ما فعلته كان في لحظة ضعف. ضعف إنسان لم يفكر كثيرا في نتائج فعله، لأنّه لم يتعود على ذلك. يخالجني شك في أنّها قد ترفض أن تسمع كلامي أو تبريراتي، الّتي لن تكون سوى محاولة أخيرة لإنقاذ ماء وجهي من نظراتها. لكن كلّ ما أخشاه أن ترى في محاولتي هذه مجرد خدعة لإعادة العلاقة بيننا، وقد صرنا تحت سقف واحد.

أتذكر، الآن، بحنين تلك المساءات تحت شجرة الخروب أمام الضريح عند الغروب. لم يكن ثمة ما يخيفنا ولا ما يقلقنا عن مستقبل وضعناه حالمين. أمصّ عقب سجارتي وأنفث دخانها في تلذذ ناحية السماء، وأحلم باسما. تحيط عنقي بيدها الطويلة وتقبلني باسمة على أذني، ثم تعضني، وتؤكد لي، في أذني همسا، أنّها لا تريد أن تستفيق من هذه الأحلام. ولم أفكر مرة واحدة، أنّي سأستفيق منها أنا الآخر، منتبها لنفسي، أني لست مسؤولا عمّا يحدث لي أو عمّا يحدث من حولي.

لست بصدد تحميل إخفاقاتي وهجر جميلة لي لأحد آخر غيري. لست ضحية، لكني في نفس الوقت لا أتحمل كثيرا ممّا أنا فيه. لم أتوقف عن السؤال كلما رأيتها أو تذكرتها. لماذا أنا؟ ألم يجد القدر أحدا غيري؟ ما خطيئتي وقد دخلت متاهة لم أتخيلها، ولم أعرف كيف حدث ذلك، مثلما لم أعرف كيف أخرج منها؟ إنّه الأمر الأكثر سخرية، سخرية القدر منّا، حين تصير حياتك كلها مرتبطة بفعل في لحظة ضعف، أو سقط سهوا من مجرى حياتك. ولا شيء أكثر

إهانة لك، حين تضطر إلى حذف من تحبّ من قائمة تفكيرك واختياراتك في الحياة. الحياة، الّتي لم تعد غير شجرة بلوط وقد شوهتها عاصفة، بعث بها القدر، في غير موسمها.

***

دافعا بقدمي تجاه الباب، أزحف على مؤخرتي ورجلي، وأتكئ على يدي، حتّى أتمكن من مدّ جسدي عند عتبة الدار. أدق الباب الخشبي بقدمي وأنتظر. ليس بمقدوري، وأنا في الحالة هذه، أن أنادي صديقي أو أن أصرخ مستغيثا، فلساني التصق بشفتي السّفلية كسمكة أُخرجت من مائها، وحلقي قد جفّ، فلم يعد غير قصبة مجوّفة تسمح لمرور الهواء بصعوبة وتصدر شخيرا كشخير شاة تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد ذبحها في يوم العيد.

أستفيق، متطلعا في وجه خالة صديقي غير مدرك لما يحدث لي، وقد تعطرت أنفاسي برائحة اللّيمون. لا شك أنّي استفقت من غيبوبتي بفعل حبّة ليمون لازالت بيدها، والّتي بدت سعيدة مبتسمة في وجهي. لكن ابتسامتها سرعان ما

اختفت مع سؤالها لي، إن كنت قد شفيت من العدوى أم ليس بعد. أؤكد لها أنّي شفيت، وأنّ الشهادة، الّتي تثبت ذلك وممضاة من الفسيان نفسه، مع جدّتي التي تركتها تحكي مع بعض الجيران. تعود لرسم ابتسامة رقيقة على طرف فمها وتداعب شعري برفق، ثمّ تغادر. يظل صديقي، الذي يجلس عند رأسي راسما ابتسامة عريضة وبين يديه طاس ماء. يشير إليّ بعينيه إلى الطاس. أهز رأسي نافيا رغبتي في الماء. لا أعرف كم شربت وقد تبلل وجهي وصدري. يضع الطاس على الأرض. ثمّ، متنهدا يلقي بجسده أمامي. يصدر آهات متتالية ثم يخبرني أنّه لا يجد متعة في العيش بالمدينة القديمة، لأنّه منذ أن جاء لم يغادر هذا البيت. إنّه يعيش كسجين، لكنّه لا يملك مكانا آخر يذهب إليه بعد أن توفيت أمّه، وشمعوا بيتهم بتلك العلامة الحمراء. يقول متحسرا، أنّه قبل المجيء مع خالته، بعد أن ضمنت تربيته وإعالته أمام الدولة، بدل من أن يذهب إلى تلك الملاجئ الّتي أعدِّت للأطفال الأيتام، لكنّه أخطأ في اختياره. يصمت ويلتف ناحية الباب، ثم يهمس وبصره معلق بالباب، كأنّه يخشى من أن يسمعه أحد غيري،

أنّ هذا البيت، يتحول في اللّيل إلى مكان يجتمع فيه "الفسيان" نفسه مع رجلين آخرين ونساء كثيرات، يشربون ويسكرون ثم يرقصون قبل أن تتعرى النساء حتّى الصباح، لكن منذ ثلاثة أيّام لم تظهر النساء، واكتفوا بجلب أربعة رجال، على وجوههم أكياس من الخيش، وعرّوهم من لباسهم ثمّ ربطوهم إلى كراسي خشبية، وعذبوهم ضربا وصفعا وركلا. ثمّ هدّدوهم بقطع أعضائهم إن هم عادوا للتظاهر.

يغرق في بكاء صامت، ضاغطا على نفسه حتّى لا تخرج حشرجة صوته في حين تنزل دموعه مقهورة. يمسحها بكمّي قميصه وهو يحاول إعادة تنفسه إلى طبيعته.

أنظر إليه، إلى وجهه الّذي تفحم، ولا أجد ما أقوله ولا ما أفعله غير تفحصه والتطلّع إليه، في انتظار أن يهدأ قليلا. أرغب في أن أسمع المزيد مما يقول.

حين يعود إلى ابتسامته، وبعد أن دخلت خالته الغرفة وطلبت منّا المكوث هادئين حتى تعود بعد ساعة ومحذرة من مغادرتنا البيت، سألته عن الرجال الأربعة، فأخبرني بأنّهم من

سكان المدينة القديمة، الّذين خرجوا للاحتجاج رافضين لجوء بعض الناس من الحيّ السفليّ للمدينة، لأنهم خائفون من انتقال المرض. وأضاف أنّ أغلب السكان قد أغلقوا أبواب منازلهم على أنفسهم بعد أن اشتروا كل المواد الغذائية المتوفرة بالسوق.

***

أبقى منعزلا لأسبوع أو لأسبوعين، وأحيانا أكثر، وحيدا بالضريح. أنتظر عودتها من الحيّ الجامعي بتلمسان. في غيابها أنام النهار، أمّا الليل فكان لي، ولحياتي الّتي أعيشها كطائر الخفاش، لا يرى ولا يخرج إلاّ في الظلام، لكني لا أخرج عن الحيّ السفليّ. كقاطع طريق، أبحث عمّا يذكرني أنّي إنسان له رغباته ونزواته، خارج قارورات الخمر الرخيص والكحول المهرّب والسجائر المحشوة بالكيف. وحين يقتلني السأم ألجأ إلى بيتها لأستأنس بأبيها وحكاياته الّتي تتكرّر، وبرائحتها الّتي تملأ المكان.

يسوء مزاجي كلما طال غيابها بالحيّ. أحاول أن

أتذكرها. أن أتذكر كلّ شيء عرفته أو تذوقته معها، باحثا عن لحظات المتعة رفقتها، بالرغم من قصرها. لكني غير قادر على استعادتها، في حين أتذكر كلّ شيء. أتذكر لباسها، طريقة مشيتها، تسريحة شعرها، وابتسامتها الساخرة. أستعيد كلامها وأحلامها. مستسلما لذاكرتي الفارغة وغير قادرة على تجديد الرغبة، فادعها تغرق في غيابها.

أستفيق على وقع كلام أبيها، وهو يحدثني عن جدوى العلاقة والحب، بعد أن تركتُ كل شيء. تركت الجامعة. تركت البيت، وتركت الحياة كأيّ شخص عادي. يؤكد، أن الحب يمنح الأمان والسلم، وليس بمقدوره أن يحيا في بيئة مليئة بالخوف. الخوف من المستقبل ومن المجهول. إنّه لا يرضى أن تتعلق ابنته الوحيدة بشخص، حياته معلقة على تغيرات ليس فاعلا فيها، وليس بمقدوره تغييرها. الشجاعة وحدها ليست كافية، لتكون أرضا خصبة للحب، أو لبناء علاقة كما يريدها أيّ أب أو أمّ لأبنائه.

إحساس ملّح يغمرني بأنّ خطأ ما يتعلق بي، وليس بمقدوري فهمه الآن. فأمنح الشك فرصة ليسيطر على ما

تبقى من ذاكرتي. الشك في كلّ شيء. في نفسي، في حياتي، وفي العربي المونشو.

يتأمل واحدنا الآخر زمنا، لكني لا أجرؤ على الكلام، ولا على التبرير. يسعف الموقف، كعادته، بكلامه الّذي بدا لي ثقيلا في أوّله بتلك المقدمة، الّتي أعرف مسبقا ما يريد الوصول إليه من وراء سردها.

واثقا، يقول أنّه لا يحبّ أن يرى الحياة بالألوان. لقد تدرب على رؤيتها بالأبيض والأسود فقط. لا تجميل ولا تزيين فيها. فالألوان بقدر ما تجمّل وتزيّن فإنها خادعة. لو بإمكانه لوضع الحياة، أو كلّ لحظة منها، في صهريج ماء ومن ثمة رؤيتها، لا شك، أنّ رؤيتنا لها تختلف حينها، كاختلاف الليل عن النهار.

ليس ممكنا لي أن أوقفه الآن عن الكلام، مثلما ليس ممكنا لي فهمه، وفهم ما يقصد من ديباجة بدت لي ليست من كلامه المعهود. لا شك أنّه يحفظها، بعد أن سمعها من شخص ما، أو قرأها في كتاب من تلك الكتب القليلة، الّتي

وقعت بين يديه ومنحها بعضا من وقته.

يتطلّع إليّ بغرابة، وقد فقد حيويته وابتسامته، ثم يضيف مؤكدا: إنّ أيّ نظام بائس، إذا طال حكمه، فلابدّ أن يفرز شعبا بائسا، لا ترجو منه غير البؤس والطمع. لذلك يتوجب علينا أن لا نسقط في متاهة البؤس والطمع، فالخروج من ذلك ليس أمرا سهلا ويتطلب أزمنة وأجيالا متعاقبة. لقد كنا نحاول أن نتجنب السقوط، فنمنح النظام دواليب التجديد بعمليات، أقلّ ما يقال عنها، أنّها جاءت دون تفكير عميق، وحتّى يؤمن الشعب أن لا شيء ثابت. يرحل رجال ويأتي آخرون لكن الوطن للجميع. لم تكن فكرة سيئة ولا خادعة، لكنها كانت تخفي نواياها. النوايا الّتي لا نعلمها حتّى نراها تتحقق، فتنكشف. قد يخالجنا بعض الشك فيها، لكن لا أحد بمقدوره الجزم فيها. فبعد سنوات ثلاث لنظام لم يجد طريقه، بعد استقلاله عن الاستعمار، كان لزاما تجديده. وهو ما حدث فعلا وسقط الزعيم سقوطا حرّا لم يفهمه الشعب المتعلق به وبتاريخه. لا أنكر أنّه كاد أن يتحوّل إلى أسطورة أبدية، فكان علينا تقزيمها وتقليص حجمها، فعملنا على

استبدالها، كخيار أخير، بأسطورة أخرى، وجاهدنا لتقديمها في صورة مكتملة، لأجل استقرار النظام وكسب ثقة الشعب.

يصمت. يتنهد وبأصابع يده الوحيدة يفرك شعر رأسه. ثم يخفض رأسه متطلعا ليده المقطوعة، كأنّه اكتشف غيابها فجأة، فراح يبحث عنها. أدرك أن لون وجهه يتغير. يحمّر حتّى اسوّد في محيط عينيه. يخالجني اعتقاد، أنّه يقاوم دموعا ترغب في النزول، وأنّه دخل حالة من صمت لن يخرج منها. أتهيأ للمغادرة، لكنه عاد للقول، دون أن يهيئ صوته بنحنحة فجاء محشرجا، فاضطر إلى شرب الماء من طاس أمامه عدّة مرات. اعتدلت في جلستي أستمع: الآن، وبعد هذا العمر الطويل، أكتشف كم كنّا أغبياء وبؤساء. كان بإمكاننا أن نلجأ إلى أفضل الطرق وأسرعها تاركين الشعب يختار أسطورته، ويتحمل تبعات ذلك. لا أعرف لماذا علينا دائما أن نكون أوصياء على الناس! ولا لماذا نفكر بدل الآخرين ونعتقد أنّ تفكيرنا هو الأصح! أتساءل الآن وبعد هذا العمر، حتّى لا أقول بعد فوات الأوان، من وهبنا هذا الحق؟ من نصبنا آلهة على العباد نتحكم في عقولهم ومصائرهم؟

يصمت مرة أخرى، لكني لا أتحرك من مكاني. أنتظر أن يستعيد أنفاسه ويكمل حكايته، التّي سمعتها مرّات عديدة، لكنّها المرة الأولى الّتي أسمعها بهذه الاعترافات والحقائق، وبهذا التأثر البالغ في الكلام.

***

مع المساء تعود خالته ومعها جدّتي، الّتي لم تسألني عن حالي ولا عن سبب مجيئي للمدينة ولا كيف دخلتها، بل اقتربت منّي وأمسكتني من يدي وجرتني. لم أفكر في مقاومتها أو معاندتها. تبعتها مستسلما ليدها، غير مهتم للأمر، بعد أن عرفت بعض ما جئت من أجله. فقد عرفت من صديقي ياماها أنّ صديقنا فريد الزاووش(*) الذي لم أره منذ بداية انتشار العدوى، وقد طُليت العلامة باللون الأحمر عند مدخل بيتهم، أنه غادر الحيّ رفقة أمّه وأختيه، مع أحد أعمامه إلى ضواحي مدينة تلمسان. وأكدّ لي أنّه لم يصب بالعدوى الّتي قتلت أباه وأخته الرضيعة.

---

* الزاووش: دارجة محلية وتعني العصفور أو الطائر.

خلال عودتنا للحيّ السفليّ، لم أهتم ليد جدتي الضاغطة، مثلما لم أهتم لحراس باب قناوة، الّذين لم يوقفونا، بل اكتفوا بابتساماتهم العريضة وتحريك رؤوسهم لردّ تحية جدتي.

حين دخلنا "الحوش"، حرّرت جدّتي يدي، وتطلّعت إلى وجهي مليّا بنظرة لم أعهدها فيها. تنهدت، ثم حذّرتني من الذهاب إلى بيت خالة رشيد، ووعدتني بعقاب شديد إن فعلت ذلك مرة أخرى. لكنها لم تكتف بذلك، فراحت كلما خرجت من المطبخ ورأتني تعود لتحذيراتها، ثمّ تلعن خالة رشيد وتسبّها. ثم تتّهمها بأنّها لم تجد رجلا يردعها أو يقيم عليها الحدّ.

منزويا عند عتبة الباب، أتلهى بعد حبّات الآجر الأحمر المصفوف بغير تناسق على جدران "الحوش"، إذ لا يمكنني أن أتخيّل كيف سيكون الحيّ السفليّ في غياب صديقي رشيد وفريد، ولا ما سأكون عليه. أعدّ الحبات طولا ثمّ عرضا، وأحسب عددها. أكرّر العملية عدّة مرّات حتّى يغلبني النعاس.

من يدري، ربما ليس حلما ما كنت فيه. مرتجفا، أتصبب عرقا. نبض قلبي يرتفع ويتسارع. خائفا أصرخ. تخرج جدّتي من المطبخ وتضمني إلى صدرها. تسألني عمّ حدث لي، لكني لا أجد إجابة، إذ لم أعد أتذكر لمَ صرخت، ولا لمَ أنا خائف، فألجأ للبكاء. فتبكي معي دون علم بسبب بكائي. ثم تتحسّس جبيني وبطني. تتطلع لوجهي وتفحص عيني.

ليلا، وبعد العشاء، تخبر أبي، فيقترب منّي باسما. يحاول أن يستدرجني للحديث عمّا حدث لي. لكنّي لا أجد ما يقنعه فألجأ للصمت. يتركني ويعود لجدّتي، الّتي تكون قد اقتنعت أن دخولي بيت خالة رشيد هو سبب مرضي وهوسي. البيت، الّذي تملؤه الشياطين.

***

محتجزا بسبب حكايته الّتي لم تنته بعد، أتطلّع إليه، فيدير وجهه ناحية جدار عُلّقت عليه شهادة تثبت مشاركته الفعالة في حرب مقدسة، كمحاولة لإخفاء دمعتين تسللتا من

عينيه. ينظف صوته هذه المرّة، دون أن يُبعد نظره عن تلك الشهادة الموضوعة في إطار ذهبيّ، ومكتوبة بخط عربيّ جميل، قبل أن يضيف: بعد عودتنا من سيناء، من تلك الحرب، الّتي لم نعتقد أبدا أننا سنخسرها بتلك السرعة، لم أكن أعلم ما يحضره بعض الرفاق. ولا أحد منهم أخبرني أو أطلعني بنية عزل الأسطورة، لأنّهم اعتقدوا، أنّي مقرّب منه ولا يمكنني بأيّ حال من الأحوال خيانته. لا أنكر، أنّي تمنيت بداخلي لو تمّ عزله، على الرّغم من أنّي كنت من السباقين لمحاربتهم. بعدها أدركت أنّه عليّ أن أتوغل أكثر ما أستطيع في نظام مبني على تصفية كلّ من يرد اسمه على مسامع الأسطورة أو حاشيته. ولم تُبن، تلك التصفيات، على محاكمات عادلة ولا على تحقيقات. فمنهم من مات في حادث سيارة، ومنهم من انتحر، وقليل منهم تمّ سجنه وتعذيبه أو تمكن من الهرب.

يختفي صوته وسط نشيج بكاء حاد. استعاد تنفّسه وصوته بعد محاولات عدّة. وبعد أن سالت دموعه وبلّلت وجهه، وهو يحاول مسحها بيده الوحيدة، عاد للكلام: لقد كانت مرحلة عصيبة عليّ، لم أعرف طعم النّوم من يومها،

حتّى تلك المهدئات، الّتي أدمنت عليها بشكل رهيب ومفرط، نخرت جسمي وعقلي، ولم تعد تنفعني في شيء مع مرور الأيام. فبقدر ما كنت أبدو قويّا وشجاعا في أعين الآخرين، بقدر ما كنت أشعر بجبني وعهري. لا أحد يمكنه أن يدرك حجم كرهه لنفسه، غير الّذي عاش ذلك فعلا. كان عليّ أن أستعيد نفسي. أن أكفّر عن حماقاتي وجرائمي وصمتي. فكرت أوّلا في الانسحاب وقدمت استقالتي، على الرّغم من أنّي كنت متيقنا أنّ ذلك لن يريحني ولن ينسيني فيما اقترفت ولا فيما صمتُ عنه. لكن انسحابي رُفض بعد أن وضعت قدمي ويدي في المستنقع واطلّعت على خفاياه وأسراره، رغم تبريراتي الّتي بدت مقنعة بحجة المرض والوهن. تبريرات أبعدت عنّي الشكوك لأشهر فقط. فليس من المعقول أن تنسحب لأنّ ضميرك يؤنبك، أو أنّ ما اقترفته من آثام يعذبك! كان عليّ أن أجد طريقة للخلاص. خلاص نفسي، الّتي قسوت عليها كثيرا، وأدخلتها متاهات لم أتخيلها أبدا. متاهات صارت تزداد اتساعا وتشعبا، وتكبر حجما مع الوقت. وقبل أن أغرق في المستنقع حدّ الرأس فلا يمكن بعدها الخروج منه،

فكرت وقرّرت لوحدي. قرار اتخذته بعد محاولة انتحار فاشلة، والّتي أدخلتني دائرة المشكوك فيهم. لم أكن أعلم ذلك قبل محاولة تنفيذ خطتي وإلقاء القبض عليّ. لست نادما على محاولتي بقدر ندمي على فشلها. ربما لو أنّي استعجلت الأمر ونفّذتها قبل محاولة الانتحار لنجحت، وخلّصت الجميع، فيكون ذلك تكفيرا عن كلّ ما اقترفت. وأدركت لاحقا، أنّ الغضب وحبّ الانتقام حركاني دون تفكير طويل، فلم أخطط بشكل كاف وجيّد. قبل أسبوع من تنفيذ العملية، استدعيت لاجتماع أمني لأن الأسطورة سينتقل لهذه المدينة، مدينة ندرومة، بعد أن عصفت ببعض أحيائها الكوليرا وفي محاولة منه لإظهار مدى تعلّق السلطة بالشعب، سيعطي إشارة انطلاق لإنجاز معمل للصناعات التقليدية بجوار الحيّ السفليّ. عرفت مهمتي، والّتي لم تكن ذات أهمية بالغة كما في السابق، وخالجني الشك حينها، أنّي لم أعد ذلك الشخص ذا الثقة والمقرّب من النظام، لكن ذلك لم يمنعني من العمل على تنفيذ خطتي. كانت مهمتي تقتضي تأمين الطريق الرابط بين تلمسان وندرومة، وهو ما أفرحني لأنّ ذلك سيمنحني

هامشا كبيرا للمناورة، وتنفيذ ما أنا عازم عليه، وسط جبال فلاوسن المطلة على مدينة ندرومة. اتخذت كل التدابير والاحتياطات الأمنية اللازمة، لكني تركت فجوة، على مسافة نصف كيلومتر فقط، دون تأمين عند منعرجات وادي ديّان الخطرة. أعرف أنّ الموكب الرئاسي سيقلل من سرعته عندها. لم أشأ أن أتدرب على الموقع، الّذي اخترته لتنفيذ عمليتي، فقط عينت مكان انتظاري للموكب بعيني خلف شجرة سرو ضخمة قبالة خروج من منعطف خطر. لا أنكر أن الخوف بدأ يتملكني من حينها. ولم أنم تلك الليلة، ليلة زيارة الأسطورة للمدينة، ولم أتوقف عن تفقد الحرس وأحوالهم واحدا واحدا على غير عادتي، حتّى فرغ خزّان سيارة الجيب وشعر السائق بتعب وإرهاق شديدين.

يصمت. ثم يتنهد بعمق متطلعا إليّ بغرابة، كأنّه يراني لأوّل مرّة، ثم يواصل حكايته: مع الفجر، وفي الوقت الّذي هممت فيه أن أقوم بدوريتي الأخيرة، وقبل أن أتمركز في موقعي، حاصرني أربعة من حرسي. لم أستطع مقاومتهم ولا الإفلات من أيديهم، فأوقعوني أرضا وجردوني من سلاحي. بعدها لا

أذكر شيئا ولا ما حدث فعلا، حتى استفقت في زنزانة. الزنزانة، (أو المخبر كما كنّا نسميها)، والّتي أعرفها وسبق أن دخلتها أثناء عمليات التعذيب والاستنطاق لكلّ المعارضين للنظام. لم أعتقد أنّ مقامي بها سيطول، لأني لم أنفذ العملية، وحاولت إيهام مستنطقي، الّذين كنت أعرفهم فلم يلجأوا لتغطية وجوههم، أنّ خطأ ما وقع. لكنهم أصرّوا أنّني كنت أخطط لعميلة اغتيال الرئيس. لم أرَ نفعا في الاعتراف فظللت نافيا لها. دام الاستنطاق ثلاثة أيام متواصلة ثم لجأوا إلى تعذيبي بتلذذ. أعرف التعذيب وطرائقه. ألم أكن فاعلا ومبدعا له! لكنّي لم أعرف حجم الألم ولا الدمار الّذي يسببه للإنسان إلاّ بعد أن ذقته! لا أنكر أن آلامي كانت تتضاعف كلما تذكرت أولئك الأشخاص، الّذين مرّوا بهذه الزنزانة وأشرفت أو اطلعت على تربيتهم، (كما كان يحلو لنا تسمية تعذيبهم). كنت أعلم أن كل هذا سينتهي برصاصة في الرأس، أو جثة هامدة في سيارة بعد حادث مرور مفتعل، لكن أوامر عليا جاءت باغتيالي رمزيا بدل اغتيالي جسديا، وهو ما يعني أن مكوثي سيطول، وربما سأُنسى في إحدى الغرف المظلمة، إلى

أن يتّم تشويه صورتي وامتصاصها من كل عمل للوطن أو حبّه. لقد استكثروا في الموت! الموت محافظا على كلّ تاريخي! بعد ثلاث سنوات، وحين أطلق سراحي لم أجد نفسي الّتي أعرف! لقد صرت شخصا آخر! شخصاً باع نفسه ووطنه وكلّ شيء لعدو خارجي! حتى كدت أنا شخصيا أن أصدق ذلك! والمؤلم أنّي خرجت بيد مقطوعة، بعد أن تعفنت جراء جرح، بدا في الأول بسيطا، لكن في ظلّ الإهمال الّذي عانيته لمرض السكري، فقد استأصلوا يدي ليزيدوا من ضعفي وعجزي.

أتأمل ذراعه، باحثا عن يده، الّتي لم تعد في مكانها. لا أدري لما أشعر بالشفقة ناحيته! ربما لأنّي لا أعرف ما يشعر به شخص فقدَ جزءاً من جسده! وكيف يتكيّف مع ذلك! ينتبه لعيني، الّلتين تتحركان من أعلى الذراع إلى أسفله، وتتوقفان عند ذلك القماط الملفوف أسفل الساعد، فيحاول اخفاءه عند خصره.

يتنهد بقوة، كأنّه يحاول إخراج شيء ما من داخله. أعود للتطلّع لوجهه، فيعود لحكايته، وقد أغمض عينيه مدّة

قبل أن يفتحهما، ثم تنفس عميقا وواصل كلامه: ليس بمقدوري الآن أن أصحح مساري ولا خياراتي. ولا أنكر أنّ الندم ينهش ذاكرتي وتفكيري كل لحظة، كلّما تذكرت أولئك الّذين عانوا من بطش يدي. اليد الّتي لم أعد أملكها، لكني أشعر بقليل من الارتياح حين أدرك أنّ كلّ ما عانيته بعدها لم يتقاسمه أحد معي. فقط لأنّي كنت وحيدا. لا عائلة لي ولا أقرباء مقربون، عدا ابنتي جميلة، الّتي لم يتجاوز عمرها حينها العاشرة. ربّما لم تطلها أيديهم لصغر سنّها أو لأنّها كانت تحت كفالة أحد أخوالها، فلم ينتبهوا لها. لا شيء يطيل من أمد الإيلام وينخر عقلك وضميرك أكثر من تعذيب شخص آخر عزيز عليك بسببك. لذلك أنا الآن، وبناء على ما أعرفه وما عملته في هذا النظام، الّذي لا يتوانى في تعذيب كلّ من له علاقة بك، أطلب منك بكلّ صدق وخوف، خوف أب عن ابنته لأني أعلم ما لا تعلمه، أن تبتعد عن جميلة. ابنتي الّتي ليس لي أحد غيرها بعد وفاة أمها أثناء ولادتها. ربما عليك أن تنتبه أنّي بلغت من العمر ما لا يسمح لي الآن بالزواج مرّة أخرى. إنّي لا أريد أن تعاني طول حياتها من أجل أحلامك

ومبادئك الّتي أحترمها وأقدّرها مثلما أقدّر فيك شجاعتك وحبك لبلدك. لكن عليك أن تختار. إنّه طلب لا يخالجه كره أو خيانة، بقدر ما هو طلب أب أدرك الإحساس بالأبوّة متأخرا.

***

في تلك الليلة، أغمض عينيّ. أتنفس بعمق وأقرأ. أقرأ ما أحفظ من القرآن، لكنّ الآيات تتشابه وتختلط عليّ. أفتح عينيّ باحثا عن ضوء ما. أرتجف خوفا. نبض قلبي يتسارع. لم أعد أحتمل الظلام. بي رغبة كبيرة للصراخ والاستجداء، وأفكر في المواء لعلّ قطّة ما بالجوار تسمعني فتقاسمني خوفي، لكنّي أخشى أن تسمعني جدّتي فيتأكد اعتقادها أنّي مهووس أو مصروع، فأكون مع الصباح عند الفقيه. أخاف علاج الفقيه، لذلك عليّ أن أنام وعيناي مفتوحتان. فغلقهما يشعرني أن أشخاصا معي وحولي، وعلى الرغم من سرعتي في فتحهما باحثا عمن يتقاسم معي مكاني، فلا أجد غير جدّتي بالقرب منّي وقد ارتفع شخيرها، والّتي صارت تصدر شخيرا يسمعه حتّى الجيران منذ وفاة أمّي.

مرتبكا وخائفا، أحاول أن أتلهى بتخيّل جسد خالة صديقي رشيد كما وصفها لي وهي ترقص مع الرّوخو الفسيان. ليست امرأة تشبه نساء الحيّ في شيء. فلباسها كما لباس الرّوميات. فلا تغطي وجهها، ولا شعرها الأصفر المقصوص عند الكتفين. تضع مساحيق على وجهها، خاصة على شفتيها، اللّتين تبدوان حمراوين وبراقتين وسط وجهها الأبيض الدائري. وتضع قرطين كبيرين بلون الذهب في أذنيها، تتدلى منهما حراشف صغيرة، فيصدران رنينا خفيفا كلّما حركت رأسها.

أكدّ لي صديقي رشيد أنّه كان يتلصص عليها من ثقب الباب، فرآها أكثر من مرّة تدخن السجائر وتشرب خمرا في تلك السهرات في بيتها. ولما تسكر تخلع ملابسها قطعة قطعة، حتّى تصير عارية. أحيانا، كان الروخو يقلدها، فيخلع هو الآخر ملابسه ويرميها على وجهها. فتقول كلاما بذيئا يضحك الرّوخو، فيقترب منها ويراقصها. بعدها يلتحمان حتّى الصباح.

لم يكن سعيدا وهو يخبرني عمَّا يحدث بمنزل خالته،

على الرغم من أنّه لم يعتبرها خالة له، مثلما لم تر أمّه أنها أختها أبدا. لكنه بدا أكثر سعادة بابتسامته العريضة، حين أخبرني أنّه سمع خالته وهي تطلب من الرّوخو استعادة بيتهم في الحيّ السفليّ، وقد وافقها على ذلك وأكد لها حمايته. لم يفهم كثيرا من كلامهما، غير أنّه واثق من عودته للحيّ السفليّ. وفي انتظار ذلك اتفقنا أن نلتقي بالجامع، بعد أن يؤكد لخالته رغبته الملحة في حفظ القرآن، والّتي ستوافق على طلبه. يؤكد لي أنّها لا ترفض طلبا له مهما كان. وفي تلك المساءات الّتي يغيب فيها الروخو وتبقى وحيدة بالمنزل تظل بجانبه تدلّله وتمسح شعر رأسه وتقبله كلّ حين. متعجبا، يتساءل عن سرّ هذا الحنان الزائد، على الرغم من عدم تفاهمها مع أمّه، الّتي كانت ترفض مجيئها لبيتهم!

لا أعرف لما يغمرني إلحاح شديد بسرد ما أخبرني به صديقي لجدّتي. أفكر جديا في ذلك، لكني أخشى أنّ معرفتها بهذه التفاصيل ستجعلها تحرمني من لقائه بتشديد مراقبتها لي وأسئلتها الكثيرة أثناء خروجي ودخولي.

***

مستعيدا كلامه، كما الرنين في أذنيّ، فلا أسمع غير أنينه الصارخ وأنانيته الطاغية في كلّ كلمة قالها. ماذا يعني أن يؤكد لي، أنّه لم يرتبط بامرأة بعد وفاة زوجته، وابتعد عن ابنته وهو يعيش في هرم النظام، الّذي لا يتراجع في إيذائك وإيذاء كلّ من تحب إن خرجت عن خطه؟ أعترف، بيني وبين نفسي، أنّه فعلا لم يتزوج ثانية، رغم أنّه كان بإمكانه أن يتزوج من أيّ امرأة شاء، وترك ابنته بعيدة عنه عند أخوالها، حتّى اعتقدت لأعوام أنّ خالها هو أبوها.

ثمة ما يريب في حكايته. لست متأكدا من ذلك لكن عقلي لا يصفو لكلامه. ربما يكون قد عقد مع الفاعلين في النظام، من رفقائه وأصدقائه، اتفاقا بعدم المساس؟ وعاد إلى هذا الحيّ كأي شخص عاد، بعيدا عن العاصمة بعد أن أبقوا على معاشه. أدرك أن الصمت له ثمنه مثلما للكلام ثمنه. ومن يطمح أن يعيش حياة الأحرار ويدعو إليها، عليه أن يتحرّر هو أوّلا من كل قيد، بما في ذلك قيود العائلة والأهل.

أفكر كثيرا في ما عليّ فعله! أفكر جديا في هذا الشخص، الّذي يبدو بطلا وقدوة في لحظة، ثمّ في لحظة أخرى

ينهار أمامي بكل تاريخه! أفكر محاولا، أن أجد له عذرا مقنعا، لكن بعيدا عن أيّة وصاية بما في ذلك أبوّته، أو أجد لنفسي سببا واحدا لتغيير مسار حياتي. لقد أدركت، من خلال سرد حياته، أنّ الحياة خيارات، لذلك عليّ أن أختار حياتي، وعلى جميلة أن تختار حياتها.

لست مستعدا للتنازل عن خياراتي وعن جميلة بالذات لأنّ شخصا، وإن كنت أقدّره، طلب منّي ذلك لأنه أخطأ في خياراته. ثمّ كل كلامه جاء لأجلها لكن في غيابها. لم يطلب منها رأيها ولم يسمعه. إنّه يمارس وصايته ويفكر في مكانها، كأنّه لازال نافذا في النظام، الّذي لا يريد أن تفكر وتختار حياتك لوحدك.

ربّما من حقه أن يمارس وصايته. ربّما لو اختلف الوضع لقبل به. لكنّي لست مقتنعا بكلامه، أو على الأقل ذلك ما شعرت به لحظتها، حين تحدث عن جميلة، ابنته الوحيدة، والّتي لم تعش كما عاش بقية الأطفال، وعمّا ستجنيه من علاقتها بشخص يعيش كما الفأر بين الجحور، خاشيا، في أيّ لحظة، مصيدة تعقل جسده ووجوده.

ليس بمقدوري أن أفهمه، وأفهم كلّ ما يقصده من كلامه المبهم، إلاّ أن علاقتي بجميلة يجب قطعها. أفكر في ذلك، الآن، وبعيدا عن كلّ ضغط، لا يمكنني أن أتخيّل جميلة تتألم أو تتعذب بسببي. لذلك كل ما عليّ فعله هو أن أعرف رأيها. ليس عليّ، وهي تعرفني أكثر من أيّ شخص آخر، أن أخذلها وأخون ثقتها بهروبي من مواجهتها بحقيقة ما يريده أبوها.

***

أستفيق على رائحة ثوم تنبعث من المطبخ. أخمن أنّ جدّتي تحضر طعاما أو دواء لي. معتقدا، أنّ الصباح أقبل، أتفاجأ، حين أكتشف أن الوقت ظهيرة، غير متذكر متى نمت ولا كيف! أخرج متسلّلا، وأسير مجهدا، في حرّ الظهيرة، لساعات بالحيّ. أمرّ بساحة الأبطال، آملا أن أجد بها أحدا من أصدقائي. وبداخلي يرتفع أملي أن أجد صديقيّ رشيد ياماها وفريد الزاووش، أو أحدهما على الأقل، كما كانت عادتنا دائما حين نهرب من نوم القيلولة المفروض علينا في بيوتنا، على الرغم من علمي أنّهما لم يعودا من أبناء الحيّ.

وحيدا، وشاعرا بالسأم من تجوالي أعود للبيت. فلا شيء تغيّر. فالعلامات لازالت تزيّن البيوت. علامات بيضاء وأخرى حمراء فوق البيضاء. لقد بدت دروب الحيّ فارغة وخالية من الحركة والأصوات المتعالية من البيوت، والّتي كانت تميزها. لا أعتقد أنّ الحيّ سيعود كما كان.

أقضي ما تبقى من يومي ممدّدا على لحاف وسط "الحوش"، متطلّعا للسماء وباحثا عن وجه أمّي، الّتي أفتقدها مع الأيام. مثلما أفتقدها الآن، مع هذا الغروب، أين يبدأ قلقي وخوفي من ليل جديد. لم أعد أحتمل النوم في الظلام. فكلّما أغمضت عينيّ أشعر بشيء يقاسمني الفراش والمكان. أشعر بأنفاسه وبحركاته. أين أنت يا أمّي؟ أرغب الآن في حضنك وفي ضمتك الّتي تنسيني الخوف وما أنا فيه. هل عليّ أن أخبر جدّتي، أم أكتم ذلك حتى لا أتعرض لعلاج الفقيه؟ أم عليّ أن أتحلّى بتلك الشجاعة الّتي يصفونني بها في كلّ الحيّ؟ الشجاعة الّتي لم أمتلكها، ولم أحاول أن أكتسبها أبدا. إنّي أشعر بالضعف والعجز، كلّما وجدت نفسي وحيدا.

أمضي وقتي بين البيت والجامع. أحفظ القرآن خوفا

وهربا من عصا الفقيه ومن عينيه، اللّتين تلاحقانني، حين أدخل، وحين أخرج، أو لما اقرأ عند ركبتيه ما حفظت. أشعر أنّه يفحصني بعينيه، ليطمئن من شفائي، أو لأنه اكتشف مرضي وهوسي، مثلما تقول جدّتي، كلمّا حاولت أن أخبرها عن عدم نومي ليلا. لم تعد تستمع لكلامي وشكواي، وهي تمسح على رأسي وجبيني. لقد تأكدت من هوسي، الّذي لا يتوقف عن خلق أحداث وتخيلات. فتوقفت عن الشكوى، وعن البكاء، وعن الكلام أيضا. أدركت أنّي أجابه نفسي ومصيري، وعليّ أن أتحمّل ذلك. لكنّي أحلم بلقاء أمّي كلّ مساء.

***

مرتبكا أقف أمامها. أنظر إليها متفحصا وجهها، لا أعرف كيف أبدأ سؤالي. من الصعب أن أسألها عن مصير حبّنا. أتنحى جانبا وأقرفص عند باب الضريح، باحثا في جيوبي عن سيجارة هاربا من بريق عينيها، ومفكرا في صيغة للسؤال. لا أريد سؤالا مباشرا وصادما. فلا أضمن نتيجته معها. هل يتوجب عليّ أن أصوغ ديباجة طويلة ذاكرا ما

عشناه وما نحلم به؟ أعرف أنّها ستبتسم وتطلب منّي أن أصمت، أو تضع كفها على فمي. ثمّ تنتظر أن أقبّلها. عندها القبلة أفضل من دواوين كل الشعراء في العشق والحبّ. القبلة تجعلك تحس بما تعجز عنه كلّ لغات العالم. إنّها لحظة توحد اللّسانين. فهل تملك اللغة قدرة التعبير عن هذا الإحساس؟

لم أعد أجادلها أو أناقشها في مسائلها الجديدة وتصوراتها، كلّما عادت من الجامعة في العطل أو في نهايات الاسبوع، وأكتفي بالاستماع إليها مبتسما وموافقا. بداخلي أدرك أنّها تغيّرت كثيرا ولم تعد تلك الطفلة، الّتي تبتهج حين تراني لتبدأ عمليات الإثارة.

لا أتمكن إلاّ بعد بذل جهد كبير في التفكير من بدء الحديث عن أبيها، وعن لقائي به من يومين. وكما توقعت تبتسم، ثم تفاجئني، حتّى قبل أن أطرح سؤالي، بسؤالها:

– وماذا تنتظر منّي؟

تبتعد خطوتين، دون أن تبعد نظرها عنّي. لكن ابتسامتها غابت في انتظار ردّي، الّذي لم أهيئه. أحاول أن

أجد مخرجا ممّا أنا فيه. أرمي عقب السيجارة المنطفئة بين أصبعي. أقف. ثمّ أقترب منها لكنّها تشير لي بيدها أن أتوقف مكاني. أدرك أنّها تنتظر جوابي. ماذا عساي أن أقول لها، وهي تعلم مسبقا ما انتظره منها؟ ربّما تريد سماع رغبتي ليطمئن قلبها، وتتأكد من حبّي لها؟ أفكر أنّه عليّ الآن، أن أخرج من صمتي، الّذي إن طال ستقرأه خذلانا منّي وتراجعا عن أحلامنا أو هروبا منها. أحاول أن أرسم على شفتي ابتسامة خفيفة، قبل أن أقول:

– أنت تعرفين جيدا ما أنتظره منك.

تتعقبني بنظرات فاحصة كأنّها لم تفهمني أو لم تسمعني، فتختفي ابتسامتي الخجولة. وأعيد جوابي:

– متأكد أنّك ستظلين معي وإلى جنبي، لكنّ قرارك هذا سيخيّب آمال أبيك.

لا تبتسم، لكنها تقترب منّي، حتّى لامس صدرها صدري، فتهمس:

– وماذا كنت تتوقع منّي، أن لا أخيّب آمال أبي، وأخيّب آمالي وأحلامي؟

لا أعرف ما يتوجب عليّ قوله أو فعله، وقد أحسست بنبضات القلبين ترتفع صارخة. هل أقبّلها، أو أعانقها؟ أم أنسحب متبعا خيار أبيها، الّذي يبدو لي منطقيا الآن؟ ليس من السهل فعل ذلك، لكن ما جدوى أن تجر معك شخصا تحبه إلى متاهتك، الّتي لا تعرف بدايتها من نهايتها؟ لكنّها لا تمنحني هامشا للتفكير، فتخبرني أنّها سمعت كلّ كلام أبيها معي، الّذي لم يكن غير صراخ نجدة متأخر في ريح عاصفة، وتمنت لو كنت أكثر حزما معه. أحاول أن أشرح لها خوفي عليها، لكنّها تقنعني أنه ليس علينا التفكير والقلق من مستقبل لا نعلم عنه شيئا، لذلك علينا أن نعيش كلّ يوم بما جاء فيه وبما يمكننا تحقيقه وفعله.

أشعر بالعجز حين أفكر وأتخيّل أنها قد تتعذب بسببي. العجز المقلق والمزمن، الذي يتصاعد غليانا في كامل الجسد عبر شرايينه إلى الرأس حدّ التّوهم بالانفجار. لا شيء يبعدني عن التفكير وتخيل ذلك غير السّكر. وفي نفس الوقت،

لا أنكر تلك السعادة الّتي تغمرني، كلّما تذكرت أنّ هناك، في هذا العالم المرعب والقبيح، فتاة تحبني ووقفت معي على حساب عائلتها.

***

لا أعرف كم مرّ عليّ من الوقت، ربّما شهران أو أكثر، وأنا أنتظر أن ألتقي بصديقي رشيد ياماها بالجامع، الّذي واظبت على الذهاب إليه رغم كرهي للفقيه، بعدما اتفقنا على ذلك في آخر لقائنا. لا أشك أن تكون خالته قد منعته من ذلك، أو تكون قد بعثته إلى جامع آخر بالمدينة، حتّى ينسى علاقته بالحيّ السفليّ وأهله. أحاول ألاّ أصدق ذلك، إذ لا يمكنني أن أتخيّل نفسي واقفا في صفّ المدرسة، مع تلاميذ لم أشعر أبدا بصداقتهم أو أنّي قريب منهم أقاسمهم نفس الحجرة ونفس المدرسة، الّتي ستشهد غياب عدد كبير من الأطفال بسبب الموت أو الهجرة. أضع محفظتي الجلدية القديمة أمامي، وأغمض عيني حالما بنسيان كلّ ما حدث.

مجفلا، أستيقظ على صوت جدّتي وهي تصرخ متبرئة.

أقترب منها مصغيا، بعد أن أدركت أنها تصرخ في وجه أبي، الّذي لم أره منذ وفاة أمّي، طالبة منه مغادرة البيت. يحاول أن يقبل رأسها لكنّها تبعده بيدها. هادئا يطلب منها أن تعذره، لأنّه لم يخبرها لعلمه أنّها سترفض اقتراحه. تدير وجهها، وهي تؤكد له أنّها لم تعد تهتّم به وبأخباره، الّتي لا تزيدها إلاّ نفورا منه وكرها له. تتركه وتدخل المطبخ مسرعة، كأنّ به شيئا يشغلها عنه، أو هو أهم منه ومن حديثه. لا يجد أبي ما يفعله غير الالتفاف حول نفسه. يتطلع إليّ إذ يراني واقفا. يبتسم في وجهي، ثم يمسح على شعري ويغادر البيت متثاقلا وهو يلتف وراءه. أدرك حيرته وقلقه رغم أنّي لا أعرف سبب غضب جدّتي عليه.

تخرج جدّتي من المطبخ وهي تحاول إخفاء دموعها. تقبلني على رأسي وتمسح شعري وتقودني إلى فراشي، وهي تنبهني أنّي سأذهب للمدرسة في الغد باكرا. أكتشف حشرجة بصوتها. أفكر في سؤالها عن غضبها على أبي، لكنها لا تمنحني فرصة لذلك. في فراشي أحلم برؤية أمّي وباللّحاق بها.

أكتشف وأنا أتبع بخطوات سريعة جدّتي، الّتي حملت

محفظتي بيدها اليمنى وبالأخرى أمسكت يدي، أنّي سأزاول دراستي بمدرسة جديدة بالمدينة، وعليّ أن أتذكر طريقي ذهابا وإيّابا، بعد أن تمّ غلق المدرسة القديمة بالحيّ السفليّ. يغمرني فرح عارم، حين تخبرني أن المدرسة الجديدة ستجمع كلّ أطفال الحيّ والجهة الشمالية للمدينة. لا شك عندي أنّي سألتقي بصديقي رشيد ياماها. وأعرف منه سبب غيابه عن الجامع.

أبدأ بالبحث عن رشيد ياماها. أتفقد كلّ الصفوف، فلا أجده. أسأل بعض الأطفال عنه، فلا أحد منهم رآه. غير مصدق غيابه ألتزم بصفّي. أفكر أن أذهب لبيت خالته وأسألها عنه. ربّما تخبرني أين أجده. لا أعرف لمَ تراودني الشكوك حول اختفائه. أخشى أن يكون قد هرب من بيت خالته. لكن إلى أين يكون قد هرب؟

في آخر الصف، على منضدة يجلس بقربي طفل لم أره من قبل. طفل بجسد رجل. أبحلق فيه طويلا، فأتبيّن زغبا كثيفا قد نبت على شفته العليا وعلى ذقنه. أما شعر رأسه فقد حلقه عن آخره. أتطلع ليديه المتشابكتين على المنضدة، فأكتشف ضخامتهما وصلابتهما. أقدّر أنّه ليس طفلا، أو

أنّه قد كبر قبل عمره. أشعر بالخوف والقلق. خائفا منه وقلقا على نفسي. لا يمكنني أن أصمد أمامه في أيّ صراع قد يحدث بيننا. سأفقد هيبتي ولقبي بين كلّ التلاميذ. ألم أكن البطل الّذي لا يخشى شيئا؟

حفاظا على مكانتي وهيبتي، أحاول أن أتعرف عليه وأجعل منه صديقا، لكنّه يتجاهلني بخبث ظاهر في عينيه الغائرتين. متظاهرا بانشغاله في قراءة نص أمامه، لم يكلّف نفسه عناء الرّد على سؤالي حول اسمه أو من أين جاء. لكنّه، بعد حين يتطلع إليّ، ثمّ ضاحكا يسألني مباغتا إن كنت أنا أحمد القط. باسما ومؤكدا أخبره أنّ اسمي أحمد. يهز رأسه ويمص شفته السفلى، ثمّ يخبرني أنّ اسمه يوسف ويعلم جيدا من أكون.

في الأيّام الأولى تزورني كل مساء. نتلهى بطرز حكايات لمستقبلنا، إذ لا شيء يعكر صفونا. نحلم بالبنات والبنين ولا نتفق على عددهم. ترغب في أولاد بعدد فريق كرة السلّة وربما أكثر بمن فيهم الاحتياطيون. أضحك. وتضحك، حين أصفها بقطة في صورة امرأة. ثمّ تعلق أنّي أعيش وسط

القطط، فلا عجب أن أراها قطة. نحلم ببيت صغير وحديقة، نغرس بها شجرة زيتون تظللنا أيّام الحرّ. أتمنى شخصيا أن يكون على أطراف الحيّ السفليّ. تضحك من كلامي، لأنّ مشهد البيت، الّذي تحلم به، بجماله وروعته لا يتناسق مع حيّ الصّفيح. أؤكد لها أنّه لا يمكنني أن أتصوّر حياتي خارج هذا الحيّ رغم بؤسه وعزلته. تكتفي بابتسامة وحركة من رأسها. تستدرك أن البيت، حتّى في أحلامنا، يجب أن تكون فيه مكتبة. تفكر أن تكون غرفة نومها مكتبة. ومطبخها مكتبة. ضاحكا من فكرتها أسألها، ولمَ لا يكون الحمام مكتبة؟ ثمّ لم أفهم أبدا لمَ تحلم بعدد كبير من الأولاد ومكتبة؟ ساخرا أخبرها أن انشغالها بتربيتهم قد يمنعها من تصفح كتاب واحد! تغضب منّي وتدير وجهها. أبذل جهدا لأرضيها. ثمّ موافقا على أحلامها، أحلم معها بجعل البيت كلّه مكتبة.

أدرك، بعد تفكير عميق، أنّها أحلام كبيرة. أحلام قد تتحقق أو لا تحقق، لكن الحلم الصغير، لم يكن غير أن نعيش معا. الحلم لوحيد، الّذي لم أشك أبدا في تحقيقه، خاصّة بعد أن أقرّت أن تعيش معي مهما كلّفها خيارها هذا، على الرغم

من كل مشاكلي مع النظام، الّذي لم أكن بالنسبة له غير كبش فداء. أمّا كلام أبيها فلا يعدو أن يكون كلام رجل أدرك أبوّته متأخرا. فقط أن أكون أكثر ذكاء وصبرا فلا يمكن أن تضيّع مستقبلها في الجامعة، كما ضيعت مستقبلي، في انتظار حلم تغيير النظام ومسح سوابقي، أو ربّما قد أتحوّل إلى بطل. لا يمكنني أن أخفي ضحكتي، كلّما سمعت منها ذلك. فلا تأبه لضحكتي مؤكدة أنّها تراني فعلا بطلا، وأنّها تحبني لأجل ذلك. ثمّ تقبلني وتقبلني، لكننا لم نذهب أبدا أبعد من قبلات حارة.

تتجنب الحديث عن أبيها العربي المونشو، لكنها تطلب منّي أن أزوره كما كنت أفعل دائما، وأن أرعاه، خاصة ما تعلّق بدوائه، في غيابها الّذي لا يفوق أسبوعين أو ثلاثة. وعليّ أن أنسى حديثه وطلبه بالابتعاد عنها. تقول أنّه يمكنني الكذب عليه بقول أنّنا افترقنا، إذ لا مستقبل يجمعنا، من باب طمأنته وشراء صمته. لست مضطرا أن أعدها بزيارته ورعايته، لكني أفعل ذلك مقدّرا تضحيتها وحبّها لي. وما الحبّ إن لم يكن تضحية؟

أستجمع صورتها وكلامها، كلّما وقفت عند عتبة دارها. ثمّ أتذكر ما وعدتها به، حين أقف قبالته مسلما عليه، ثمّ سائلا إيّاه عن صحته وحاله. مع الوقت، أقتنع أنّه لم يعد ذلك الشخص، الّذي يرحب بي، كلّما رآني قبل أن يبدأ ثرثرته عن أحوال الطقس والأرض والعباد، مكتفيا بالتطلع إليّ. أشعر بالسوء والعجز، حين أضطر لخلق حكايات لم يعد يهتم لسماعها منّي، قبل أن يفاجئني في ذلك المساء، أنّ ممرضة ستقوم برعايته وتقديم دوائه.

أشبك يدي حول رقبتي مفكرا وكأنما غضبي. أفكر فيما عليّ فعله، وفيما سأقوله لجميلة. وأكتم غضبا ممّا أنا فيه الآن من تجاهل وكره. أحس أنه يتجاهلني ويكرهني، وأنّني في مكان لا يتوجب عليّ أن أكون فيه.

***

مساء لم أذهب للبحث عن رشيد ياماها، بعد الّذي حدث مع يوسف الطفل في صورة رجل، إذ طلب منه معلم اللغة الفرنسية اسمه ومكان إقامته، فأجابه أنّه يسكن الحيّ

إيكس(X). أمام ابتسامة المعلم لم أتمالك نفسي وضحكت مرددا، إيكس، إيكس. أمسكني من رقبتي وهمّ بضربي على وجهي لولا تدخل المعلّم، الّذي راح يسأله عن سرّ هذه التسمية. لم يجبه مكتفيا أنّه سكن مع عائلته إحدى البيوت الفارغة، والّتي عليها حرف إيكس باللون الأحمر، منذ أسبوعين فقط. لكن بعض التلاميذ، الّذين يسكنون المدينة أكدّوا له أنّ التسمية صارت متداولة بين سكان المدينة.

أفكر في طريقة تجنبني انتقام يوسف إيكس منّي عند خروجنا من المدرسة. فلم أجد غير الهرب إلى الضريح المهجور. تبعني رفقة مجموعة من الأطفال. بقيت، وسط عدد كبير من القطط، عند باب الضريح أنتظره. لكنه توقف على بعد أمتار منّي ومن القطط المحيطة بي، وراح يشتمني ويتوعدني بالعقاب. ساخرا منه أدعوه باسمه الجديد، يوسف إيكس، أن يقترب أكثر للمصارعة، أو على الأقل، أن يدخل الضريح إن كان يملك شجاعة ورجولة. بداخلي أتمنى أن يكون قد علم بما يحدث لكل من حاول الدخول. ثمّ أتوعده بأنّ القطط ستقطعه أشلاء إن حاول الاقتراب منّي. لم يتجرأ على

الاقتراب، وظلّ قابعا مكانه حتّى الغروب.

في الغد، وبعد أن دخلت الصّف متأخرا حتّى أتجنّب لقاءه، يباغتني بابتسامة عريضة، ويسألني عن حالي. ثمّ يهمس لي أنّي لست أحمد القط، بل أحمد الجنّ، ويضحك. وأضحك معه. نتصافح متصالحين، وأهمس له أنّه يوسف إيكس. وأعلم منه أنّه يفوقني بخمس سنوات، لأنّه دخل المدرسة متأخرا رغم أنّه حفظ نصف القرآن مبكرا، وكان ينوي اتمامه لولا أنّ أخاه الأكبر أدخله المدرسة.

أكتشف معه سينما رضا، الّتي كانت ممنوعة عنّي لصغري سنّي. منبهرا بعالم لم أعرفه من قبل، أنتظر متى يطلب منّي مرافقته، بعد أن يخبر أخاه الأكبر، الّذي كان يعمل بائعا للتذاكر، وككلّ مرّة، كان يشترط علينا الاجتهاد في دراستنا. لم يكن يمنحنا متعة الفرجة إلاّ مساء السبت، الّذي هو يوم عطلة. لكن متعتي لم تدم طويلا، بعد أن اكتشفت جدّتي ذلك، فصارت تحبسني بالبيت مساء كلّ سبت. لم تتوقف عن حبسي، بل كانت تهدّدني بإعادتي إلى أبي وزوجته الجديدة، إن حاولت الذهاب في أي يوم آخر.

متيقنا من تهديدات جدّتي ومن التزامها بوعودها، أنقطع عن الذهاب للسينما، ولم أحاول فعل ذلك، إذ لا يمكنني أن أعيش بالمدينة ومع زوجة أبي، الّتي تشبه كثيرا خالة رشيد ياماها في لباسها وفي طريقة كلامها. لم تهتم بي كأنّي غير موجود، رغم أنّي لم أقم معها في بيت أبي، الّذي اكتراه بالمدينة، غير ثلاثة أيّام مرّت عليّ كأعوام طويلة.

أخبرت صديقي يوسف إيكس بقرار جدّتي. فصار يأتيني كل سبت إلى البيت، ومعه كتب رسوم متحركة نقرأها ونتفرج على صورها، تحت أعين جدّتي التي كانت تبدو سعيدة كلّما جاءني صديقي. لم تكن، بالنسبة لي، قراءة تلك الكتب غير أفلام أتفرج عليها. ومع كل حكاية، أتساءل إن كانت واقعية؟ ثمّ أتأسف أنّها لا تشبه حكايات الحيّ السفليّ.

***

منسحبا، أندفع إلى الباب من غير توديع العربي المونشو، الّذي لم يهتم لي ولم يتتبع خطواتي بعينيه كعادته. تتعثر يداي في فتح قفل الباب، على الرّغم من أنّهما تعودتا

على فتحه مئات المرّات ودون النظر إليه. أدرك معنى رعشة يديّ. هل أنا غاضب؟ هل الغضب يفقدنا التحكم في اليدين؟ أم يفقدنا التركيز في التفكير؟ التفكير في دوران المفتاح. هل يدور يمينا أم شمالا؟ أحاول أن أسيطر على يدي اليمنى، فلا أجد غير ضربها مع الباب. تحدث الضربة آلاما في يدي وجراحا خفيفة. إذ أرى دما يسيل، أنسى القفل، الّذي انفتح فجأة وبمفتاح من الخارج.

تفاجئني بقامتها الطويلة، وبصرختها، كأنّي أنا الآخر فاجأتها بقامتي عند الباب، واضعة يديها على فمها، كأنّها لا ترغب في أن يسمعها أحد. تتطلّع إلى وجهي وتمسك بيدي اليمنى وتتفحصها. ثم تحرّرها وتخرج منشفة صغيرة من حقيبتها الجلدية السوداء وتلفّها فيها. تبدأ حديثها بأن أخبرتني أنّها ممرضة وبإمكانها إسعاف يدي إن رغبت في ذلك. أنسى يدي وأنجرف معها في ثرثرتها. كأنّها تعرفني، راحت تخبرني لتطمئنني، عن مهنتها، ومهمّتها الجديدة بتكفّلها بالعربي المونشو في كلّ شيء، من طعامه ودوائه وحتّى نظافة بيته، كما كانت تفعل ابنته جميلة تماما. وأضافت أنّها تفكر أن تقيم عنده أيّام

الشتاء، أو حين تتطلب صحته ذلك. تتكلم وتحرك أصابعها الطويلة وتضع يدها اليسرى كل مرّة على كتفي. لقد بدت سعيدة بمهمتها الجديدة كممرضة لأحد أبطال الثورة التحريرية، بعيدا عن مشفى المدينة القديم وسط المرضى وأطباء مناوبين، الّذين لا يدركون ما يفعلون غير حقن مرضاهم بالمورفيل لتسكين الآلام. تقول إنّها كانت تحلم بأن تصير طبيبة أطفال لأنّها تحب الأطفال كثيرا، لكن القدر لم يمنحها أطفالا رغم عشر سنوات من زواج انتهى بطلاق، ولا استطاعت أن تكون طبيبة. مثلما هي سعيدة لأنّها التقتني دون أن تبحث عنّي، لأنّها فقدت قطتها وتعتقد أنّها لجأت إليّ. أسألها عن صفاتها، فتخبرني أنّها قطة بيضاء ببقعة سوداء في مؤخرة الرأس، فتضع يدها الباردة على مؤخرة رأسي. تلامس شعري وتضغط. لم أحاول سحب رأسي ولا تجنّب أصابعها المتوغلة ببطء في شعري. أفكّر في تأخيرها. أختلق لها حكايات عن قطط غادرت أصحابها ولجأت إليّ، وأخرى هجّرتها بنفسي لأنّها لم تلتزم بالنظام. تبدي بهزات رأسها اهتماما لكلامي، وبعينيها تظهر اهتمامها بي. رغم أنّ ما قلته

لها لم يكن حقيقة ولا واقعا.

بداخلي يلتهب حنيني للأنثى، وهي تقرّب رأسها منّي حتّى يلامس شعرها وجهي، فأشمّ عطرها المثير. أثارتني حركاتها وطريقة كلامها، ثمّ شدّتني ابتسامتها العريضة وقوامها الفاتن، وسحر عينيها الخضراوين، رغم أنّها بعمر أمّي تقريبا لو ظلّت حيّة.

لم تتوقف عن الكلام إلاّ بعد أن جاء صوت العربي المونشو من الداخل يطلبها لمنحه دواءه. تتركني عند الباب، بعد أن وعدتني في استعجال أنّها ستزورني بالضريح قريبا.

مصغيا إليها، بعد أن أشرب نبيذا رفيعا تحضره معها في كلّ لقاء، تتحدث عن حياتها السابقة. حياة لم تكن كحياتنا في الحيّ السفليّ، لكنّي تخيلتها كتلك الحيوات الّتي رأيتها في الأفلام المصرية القليلة، الّتي شاهدتها بسينما رضا. حين أسكر، أفكر في جسدها، فأنسى حياتها وما قالته عنها. أعرف أنّي لم أهتم بغير جسدها. الجسد، الّذي بدأ يفقد إثارته بعد لقائنا العاشر.

***

وجه المدينة يتغيّر. يتزين بأعلام ورايات البلد ولافتات كبيرة ترحب بالضيوف. ضيوف المدينة. في الطرف الشرقي للحيّ للسفليّ، أعمال البناء تكاد تنتهي. البناء، الّذي أقيم على حقل زيتون تمّ طليه بلون أبيض، بقببه الثلاث وصومعته الصغيرة، لم يكن مسجدا كما توهّم سكان الحيّ، بل معملا للصناعات التقليدية. المعمل، الّذي فتح شهية كثير من الفلاحين لترك أراضي الثورة الزراعية وضمان عمل مستقر بعطله الأسبوعية والسنوية، ولا ينتظرون معه سخاء السماء ليقبضوا ثمن تعبهم.

في المدرسة وقفنا في صفّ طويل، بعد أن تمّ انتقاؤنا بأسئلة دقيقة عن مكان السكن وعمل الأب، وزّعوا علينا ألبسة جديدة وأعلاما صغيرة. ولم يكن المدير وحده مكلفا بالانتقاء، بل وقف معه رجال آخرون من بينهم الروخو الفسيان، الّذي كان يومئ برأسه فقط. يهز رأسه للأعلى أو يهزه شمالا ويمينا. ولما وقفت أمام المدير، الّذي قبل أن يسألني،

كان الروخو الفسيان يومئ له بأنّي مقبول مع أطفال الأعلام. ثم رتب على رأسي باسما.

قضينا أسبوعا كاملا نردد تلك الأناشيد الوطنية، ونهتف بحياة الرئيس، ونرفرف بالأعلام. حناجر عدد كبير من من الأطفال بحت وهي تتدرب على الهتاف صارخة: يحيا بومدين (*)، جيش، شعب، معك يا بومدين. ويوسف إيكس يتقدمنا، ويعطينا إشارة البدء بيده وصوته فنتبعه. ثم منحونا يوما كاملا للراحة قبل أن يخرجونا إلى الشارع، الّذي سنصطف به وننشد ونغني ونهتف ونرفرف بالأعلام دون توقف.

باكرا استفاقت جدّتي وألبستني ثيابي الجديدة، ومسحت على رأسي، ثم تفحصتني جيّدا، وأخبرتني أنّها ستخرج هي الأخرى لاستقبال الرئيس، الّذي تعرفه جيّدا أثناء تواجدها بمعسكر المجاهدين بوجدة المغربية، وتشاهد الموكب.

خلفنا يقف المدير والمعلمون وبعض الرجال يراقبوننا

---

*بومدين: هواري، ثاني رئيس للجزائر، تقلد الحكم بعد انقلاب عسكري في ١٩ جوان ١٩٦٥ وحكم حتى وفاته في ٢٧ ديسمبر ١٩٧٨.

ويراقبون أصواتنا، الّتي لم تهدأ عن الهتاف، رغم أنّ الموكب الرئاسي لم يمرّ بعد. وأمامنا رجال شرطة وأمن بألبستهم الزرقاء، وقد وضعوا في أيديهم قفازات بيضاء، توزعوا على طول الشارع، الّذي يفصل الحيّ السفليّ عن المدينة، يراقبوننا بنظراتهم الثاقبة. لا أعتقد أنّنا سنتحمّل جفاف الحناجر والأفواه، إذا ما طال تأخر الموكب كثيرا.

مع منتصف النهار، بدأت حركة غير عادية في الشارع. رجال ببدلات سوداء ونظارات أكثر سوادا انتشروا على رصيفي الشارع. ثم ظهر الروخو الفسيان يسير بخطى سريعة في وسط الشارع ويعطي أوامره بيديه لرفع الصوت. أصواتنا، الّتي بحت. لكننا نبدل جهدا في ذلك أمام نظرات عينيه الثاقبة. وعند الباب الخشبي الكبير للمعمل وقفت طفلة صغيرة بلباس تقليدي، ووجه مزيّن كأنها تُزف لعريسها، تحمل بين يديها صينية. تتطلّع إليها الوجوه مندهشة، لأنّها لم تكن غير تلك الفتاة اليتيمة، جميلة، الّتي تسكن مع أخوالها بالحيّ السفليّ.

سيارات سوداء، على جنبيها علّقت أعلام صغيرة

ترفرف، مرّت أمامنا بسرعة فائقة، فصمتنا مندهشين، إذ لم نر مثلها من قبل، تابعناها بأعيننا ونسينا الهتاف، حتى توقفت عند باب المعمل. سارع بضعة رجال ببدلاتهم السوداء وأحاطوا بسيارة واحدة، ثم فتحوا أبوابها. خرج الرئيس ورفع يده اليمنى ملوّحا بها للجماهير ومبتسما. تقدّم نحو طفلة الحيّ السفليّ ورفعها بيديه وقبلّها على خديها. ثمّ، لم نعد نرى غير رجال أحاطوا بالرئيس من كلّ الجهات.

في المساء نسي الناس كلّ شيء. نسوا عطشهم، ووقوفهم لساعات تحت شمس حارقة، وتبادلوا سؤالا واحداً، هل رأيت الرئيس؟ من رآه ظلّ يفتخر بذلك أعواما. أمّا أنا فلم أنس معي غير صورة الطفلة جميلة، الّتي حظيت بقبلة الرئيس، وحملتها معي حلما وحبّا.

***

بقدر ما أكره نفسي كلّما استيقظت صباحا على ابتسامتها، بقدر ما أتمنى مجيئها مساء، لِما وفرته لي من شراب ومال، ولم تطلب منّي شيئا. هل كنت، بالنسبة لها، مجرّد سلعة

اشترتها؟ إنّي أعتقد ذلك. لكنّي لم أحاول أن أمنع نفسي عنها، أو أن أمنعها عن نفسي، على الرّغم من أسئلتها الكثيرة، الّتي صارت تقلقني وأحيانا ترعبني. ففي كلّ المرّات لا أجد ما أجيبها به غير التحديق في وجهها مندهشا أو مستغربا، فتنسب معلوماتها للعربي المونشو. لا أنكر أنّي في أحيان كثيرة راودني الشك فيها، وفيما تعرفه عنّي من تفاصيل دقيقة تتعلق بحياتي، لكنها تجد دائما مخرجا من تساؤلاتي، الّتي أنساها مع الكأس الأخيرة من الزجاجة الأولى من النبيذ الفاخر.

في تلك الليلة، تقف قبالتي بقميص نوم أحمر شفاف تحت ضوء باهت لشمعتين موضوعتين على الضريح. ترقص، أو ربّما تستعرض ما تبقى من مفاتن جسدها على ايقاع ضرب يديّ على خشب مائدة قديمة. تتلوى. تهز كتفيها ونهيدها. تدور ثم تهز ردفيها ومؤخرتها. ثمّ تمدّ يدها اليمنى لي. أقوم متثاقلا وأعانقها. نرقص دون إيقاع ولا موسيقى. نتمايل. تقبلني وأقبلها. ثمّ نتعرى. كشبحين نتراقص منفصلين في لعبة. تحاول لمسي فأهرب منها، وأحاول لمسها فتهرب. ثم على

الأرض يلتحم الجسدان. يتوقف لهاثنا على طقطات بالباب. أتطلّع إليها وتتطلّع إليّ. ثم نتطلّع إلى الباب، الّذي ينفتح بقوّة على وجه لم نتبيّنه، لكننا عرفنا من هو.

لم يطل وقوفها بالباب، ولم تنطق بكلمة واحدة، غير أنّي سمعت بكاءها ونحيبها وهي تغادر. أجلس ممددا ظهري على الجدار ورأسي بين يديّ. أضغط بكلتا يديّ على رأسي. أصفع وجهي. أضرب الأرض بقدميّ. ثمّ أنتف شعر رأسي، في محاولات بائسة للتفكير فيم يتوجب عليّ فعله الآن. أشعر بالعجز والغضب من نفسي. بي رغبة للبكاء والاستجداء.

مع الصباح، أستفيق على صداع حاد برأس ثقيلة وعينين متعبتين. لا أتذكر كيف نمت، ولا متى غادرت رشيدة. أحدق في الضريح وفي تلك الستارة الخضراء، الّتي تغطيه، ثم في الباب، باحثا عن شيء أتلّهى به. أتخيّلها واقفة بقامتها الطويلة تشهد على خيانتي. أجد نفسي تنساق للسؤال، هل ما قمت به مع رشيدة يجعلني خائنا في نظر جميلة؟ ربّما! لكنّي لم أفكر بغيرها، ولا نسيت صورتها، حتّى وأنا في أكثر اللّحظات التحاما. أمّا الفعل فلم يكن غير دفع لتلك الشهوة

الحيوانية الكامنة في. هل بمقدوري أن أشرح لها أنّ أحاسيسي ومشاعري لم تكن لغيرها؟ وهل بمقدورها أن تتفهم ذلك؟ هل يعقل ألاّ يتسع قلبها وحبّها لقليل من التسامح؟ ثم هل يتحوّل كلّ هذا الحبّ إلى كره وبغض في لحظة ما إثر خطأ ما؟

***

لم أرَ أبي منذ أن فتح، مع زوجته، دكانا بأحد الأحياء القديمة للمدينة لبيع المواد الغذائية المهربة من المغرب، وتخلّص من عمامته الصفراء واستبدلها بطربوش تركي أحمر، ولبس بدلة بنيّة بربطة عنق حمراء. وبدت على وجهه آثار الرخاء والغنى، حتّى أنّي كدت لا أعرفه لو لم يصرخ في وجهي آمرا أن أسلّم على أخوي الصغيرين. ثم أخبرني هازئا أن اسميهما محمد وأحمد. لم أهضم خبره، الّذي بدا لي استبدالا جريئا لنا، أنا وأخي. فلم أعد إليه، ولم أطلب منه شيئا مكتفيا بما كانت تمنحني جدّتي إيّاه من مال رغم قلّته. كان عليّ أن أتدبر أمري، وأنا تلميذ بالثانوية بتلمسان، بعد أن تخلص منّا أو يفكر في ذلك. وبدوري عليّ أن أتخلّص من فكرة أنّ لي أبا لازال حيّا، مثلما اقترح عليّ أخي، في إحدى رسائله بعد أن

أخبرته باسمي ابنيه. أخي، الّذي أخبرني أنّه ارتاح من وجهه ومن الحيّ السفليّ ومن البلد كلّه، بعد أن تحصل على منحة لمتابعة دراسته في الطب بفرنسا.

في الثانوية رفقة يوسف إيكس، عدنا لمشاهدة الأفلام بالسينما، خاصة سينما ريكس، الّتي كانت متخصصة في الأفلام الفرنسية. أحيانا نشاهد الفيلم مرتين أو ثلاثاً، إذا ما رحمه مقص الرقابة وترك لنا بعض المشاهد المثيرة. لم يكن سهلا علينا الخروج والدخول من الداخلية رغم صرامة قوانينها وشدّة حراسها، لذلك كنّا نجازف ليلا ونغادرها غير مبالين بعواقبها، ونقفز عبر سور الثانوية القديم. وإذا ما تفطن الحراس لغيابنا، فإن يوسف إيكس كان يقوم بتهديدهم إذا ما بلغوا الناظر بغيابنا، وهو ما لم يحدث أبدا. لكننا لم نتهاون في دراستنا، ولم ننسَ أنّه علينا أن ننجح في امتحان البكالوريا، إذا ما رغبنا في حياة خارج الحيّ إيكس، الّذي فعلا صار ماخورا كبيرا، ممّا جعل كثيرا من العائلات تكتب أسفل علامات إيكس بخط عربي أو فرنسي: هذا منزل شريف.

هذا منزل شريف، الجملة الّتي كانت تثير ضحكنا

كلما قرأناها بعد أن اكتشفنا أنّها مرسومة على جدران بعض المنازل بالحيّ الشرقيّ لمدينة تلمسان. ثمّ أدركنا أنّها مواخير سريّة. لم نتردد في ارتيادها نهايات الأسبوع، واكتشاف أجساد نساء جميلات يدخن مبتسمات. ومع كل امرأة كنت أفكر بها. ولا شيء غيرها. ازداد لهفي وشوقي لها. جميلة، الّتي أحبّ وأعشق.

هاربا من عيون يوسف، الّذي صار يحاصرني بسؤاله الساخر، كلّما خرجت من الماخور، هل وجدت جميلة اليوم ومتعتك؟ لا أنكر أنّ متعتي الكبيرة كانت ولازالت هي التفكير فيها، والحلم بها. لا أتصور أنّي موجود إن لم أحلم بها. إنّي أراها في كلّ وجوه النساء الجميلات.

قابضا على صدري بيدي، وخائفا من نبض القلب أن يخذلني، أذهب إليها وأصارحها، فلم أعد قادرا على الكتمان. جميلة أحبّك. لا أملك غير جرأة القول، وصدق القلب. إنّي لا أتوقع أن تحضنني أو تقبلني، كما يفعل الممثلون في الأفلام الفرنسية، الّتي شاهدت، في لحظات الاعتراف. سأكون سعيدا وصاحب حظ عظيم لو صمتت أو ابتسمت

في وجهي فقط. لكنّها فاجأتني بسؤالها، الّذي لم أكن أنتظره، فتلعثم لساني، فلم أجد للرد عليها غير ابتسامة، كادت تطير من شفتي، مثلما كاد أن يطير قلبي من قفصه نبضا.

ماذا كنت تنتظر؟ سألت، ثم أضافت أنّي تأخرت كثيرا، كي أفصح عن مشاعري، لكن الحياة تبدأ من هذه اللحظة بالنسبة لها. ولي. اكتشفت من كلامها، إنّي لم أعد طفلا.

***

أعترف أنّي ارتكبت حماقة لا توصف ولا تبرّر، لكن قلبي لم يتوقف عن التوهج لها ولقلبها. أقرّر أن أذهب إليها، لاجئا إلى قلبها، علّه يعذرني، وآملا أن يجبر العذر ما تحطم بيننا، ويعيد ترتيب نبضات قلبينا. أحلم بذلك وأطمع في طيبتها وفي إخلاصها.

أندفع خارجا بخطى متسارعة إلى بيت العربي المونشو، عازما على التحدث إلى جميلة. أحاول أن أرتب الكلمات الّتي تجعلها تطمئن إليّ وإلى حبّي وتلين قلبها. أحدق في الأفق

الغائم بعد ليلة ماطرة، وفي الممرات الترابية التي تلطخها مياه الصرف الصحي فتبعث رائحة نتانة حادة على الأنف، ثمّ في البيوت الّتي لازالت تحمل تلك العلامات من سنوات. مكتشفا، أن لا شيء تغيّر بالحيّ، رغم أنّي لم أره نهارا من سنوات. وأدرك، ربما بعد فوات الأوان، أنّي لست سوى شخص يعيش على الهامش متتبعا نزواته، ولم يهتم أبدا بغير نفسه.

واقفا أمام الباب يخذلني لساني، فلم أجد ما أقوله غير مناداتها باسمها، بعد أن اكتشفت أنّ القفل تمّ تغييره. أتعب من الصراخ فلا أحد يجيب. متأكدا أن العربي المونشو، على الأقل، بالبيت يسمعني ولا يرد، أعود لطرق الباب بيدي ثم ركلها برجلي. يخرج بعض الجيران ويتطلعون إليّ. غاضبا أتفحصهم واحدا واحدا فيختبئون وراء ستائر الأبواب. لا أحد يجرؤ على الاقتراب أو السؤال، لكني أشعر برغبتهم في أن أكسر الباب وأدخل البيت أو يخرج من بداخله. يرغبون فعلا في أن يروا ما سيحدث. يتمنون أن يكون شجارا أو ضربا يتلهون به ساعات ثم يتحدثون عنه كحكاية ليلية، بعد

أن يتم تضخيمها ومنحها أسبابا وأبعادا درامية تليق بها، لشهور وربّما لسنوات، إن لم يحدث ما يعوضها. ولن أندهش أو أستغرب لو قُدر لي أن أسمعها ذات ليلة من أفواه أخرى، ولن يصدقني أحد لو رغبت في تصحيحها. لذلك أجلس مقرفصا عند الباب منتظرا أن يفتح.

فاقدا أعصابي، أغادر الحيّ عائدا للضريح. تتعثر قدماي في الوحل وفي مستنقعات الصرف الصحي. أسب وألعن كل شيء. ألعن النظام وسكان الحيّ وحظي الّذي وضعني بينهم، ثم ألعن نفسي وأسبّها. تتملكني لحظات ضحك وأنا أسبّ نفسي. أعيد السباب عدّة مرات بصيغ مختلفة. أتفنن في إيجاد صيغ جديدة للسبّ والشتم ثم أقهقه عاليا.

متفاجئا من حركة مصباح يدوي داخل الضريح، أتوقف عن السير وعن السبّ والضحك. أختبئ وراء قبر عال من رخام وأرقب الحركة. تتوقف بدورها الحركة داخل الضريح. أتشجع وأقترب على أطراف أصابعي. أهيِّئ نفسي لكل طارئ وللمباغتة. أطلّ من النافذة الصغيرة لأرى من تجرأ

واقتحم الضريح.

مندهشا مما أرى، أدخل الضريح غير متوقع أن تكون قد عادت، فليس من عادتها أن تأتي ليلتين متتاليتين. وقبل أن أسألها تشدني من يدي وتطفئ مصباحها، ثمّ تسألني عن خروجي عن عادتي. أخبرها أنّي ذهبت للحيّ للحديث مع جميلة لكني لم أجدها. تخبرني أنّها عادت للجامعة صباحا دون أن تودع حتّى أباها، الّذي يخشى أن لن يراها أبدا، وقد قام بطردها واستغنى عن خدماتها.

لا أنكر أنّي فكرت في طردها أنا الآخر، لكني أبقيتها من باب التضامن معها، فهي رغم كل شيء لم تخطئ في حق أحد. فلم تكن تعلم، فيما أعتقد، بعلاقتي مع جميلة. فلما تدفع ثمن خطئي؟ وخيانتي؟ عليّ أن أتحمّل نتائج تهوري وحدي، مثلما عليّ أن أكون مسؤولا على أفعالي مرّة واحدة في حياتي.

محتجزا بين ذراعيها كل ليلة، فلا شيء صار يعطل مجيئها، لم أعد أرغب بها كما كنت. ولم أعد أستطيع النظر

إليها، إذ كلّما تطلّعت إليها تذكرني بجميلة وبخيانتي لها. أعترف لها أنّي أشعر بالاختناق معها، ولم أعد قادرا على الاستمرار ولا على الكذب بشأن مشاعري معها، وحتّى السّكر لم يعد يحقق نتائجه الأولى.

***

محتجزا في قلقي، أتقلّب في فراشي راغبا في نوم عميق. أبحث عن سبب مقنع لهذا الّذي يضيق به صدري، لكنّي لا أقف على شيء أو حدث معين. فقد كان يومي عاديا. عملت فيه مع صديقي يوسف على حلّ مسائل كثيرة في الرياضيات تحضيرا لامتحان البكالوريا الّذي لم يبق لنا عليه غير ثلاثة أسابيع. وحلمنا كثيرا بمنحة دراسية، تأخذنا بعيدا شمالا لبلاد البرد والضباب. واتفقنا على أن تكون عطلة الصيف لتحسين لغتنا الإنجليزية. يقول ضاحكا أنّه لا يرغب في أن يتلعثم أمام شقراوات لندن. أضحك معه، لكنّي أشعر بجميلة تقف بيني وبين أن أتخيل نفسي رفقة أخرى.

أتذكر جدّتي الّتي لم أزرها منذ شهرين. وأتذكر أخي

الّذي انقطعت رسائله عنّي. لا أحب أن يخدعني تفكيري فيدخلني في وسواس أعجز عن الخروج من متاهته. أحاول أن أقنع نفسي أنّ مرد هذا القلق هو امتحان البكالوريا، الّذي أرى فيه مدخلا جميلا لحياتي الآتية. ألم يخبرني أخي محمد، في رسالته الأخيرة منذ ثلاثة أشهر، أنّ حياته تغيّرت منذ أن تحصل على تلك الشهادة، الّتي سمحت له بالسفر. السفر يعلّمنا أكثر ممّا تعلمنا الكتب. السفر اكتشاف جميل وممتع. نكتشف تاريخ البشر وجغرافية الأوطان، ونكتشف ثقافتهم وحياتهم. ونتعلّم الحياة. فنستغل كل لحظة يمنحنا إياها القدر فنحياها. والأهم من هذا كلّه أنّنا نكتشف كذب وزيف ما نعيشه، وما نعيش فيه، ولأجله.

تلك الرسالة لازلت أحتفظ بها معي بين أوراقي، واعتبرتها رسالة تشجيع لي. لكني لم أفهم لماذا، وأنا أقرأها على جدّتي، أوقفتني عند خبر، أنّ الرّوخو الفسيان، الّذي لم نره منذ زيارة الرئيس، زاره عدّة مرّات، بعد أن تمّ تعيينه بالسفارة، مقترحا عليه مساعدته في أيّ شيء يحتاجه لأنّهم لم يتلقوا منحهم المالية منذ شهور، لذلك اضطر للعمل كنادل

بأحد المطاعم ليلا. وطلبت منّي نقل الرسالة لأبي. لكنّي لم أهتم لطلبها، معتقدا أنها فعلت ذلك، حتّى يبعث أبي مالا لأخي، الّذي لن يقبله أبدا.

أبحث عنها بين أوراقي، وأعيد قراءتها على ضوء خافت لشمعة، حتّى لا أوقظ يوسف. وأنا اقرأ يزداد قلقي، وأشعر بصعوبة تنفسي. لماذا طلبت منّي جدّتي ذلك؟

عاجزا، أبدو أمام فهم طلب جدّتي، وتائها في قلقي وحيرتي، أرغب في البكاء والصراخ. لم أقاوم عيني وهما تدفعان دموعا خفيفة نحو خديّ. سقطت بعضها على الرسالة. فمسحتها وطويتها، ثمّ وضعتها بين أوراق كتاب كان عند رأسي، لم أعد أذكره. أطفأت الشمعة بأصابعي، وتركت دموعي تسيل غير مهتم بسببها.

محموما، أصحو على صوت صديقي يوسف ويده على رأسي. أفتح عيني بصعوبة وأتطلّع إليه. يقول لي إنّه عليّ أن أستفيق وألبس ثيابي بسرعة. أترجاه أن يتركني أنام. إنّي لا أستطيع فتح عيني، ولا رفع رأسي. لا يكف عن هزّ رأسي

وكتفي ثم يسحب الغطاء عنّي. متثاقلا ألبس ثيابي، لكنّي أتفاجأ بناظر الثانوية عند باب المهجع ينتظر. يتطلّع إليّ فاحصا. ثم ينزوي مع يوسف ويحدثه بصوت خافت، لكن نظره لم يفارقني. يمنح صديقي نقودا، الّذي لا يبدي حرجا في أخذها. يتوجب عليّ أن أفهم ما يحدث أمامي، فأجهد تفكيري وفتح عيني. أحاول أن أعود بنفسي وجسدي إلى الزمان والمكان الّذي أنا فيه. يجرني يوسف بيده قائلا لي، علينا أن نذهب إلى الحيّ السفليّ الآن. ثمّ، متجنبا النظر في عيني، يلجأ إلى صمت رهيب، أمام سؤالي المتكرر، ماذا حدث؟

حين نركب الحافلة، تراودني هواجس كثيفة ومتداخلة. إنّ ما حدث ليس أمرا عاديا ولا جميلا. أفكر بكل شيء وأتخيل وقوع أيّ شيء، لكنّي لست متأكدا من شيء. أحاول أن أمنح نفسي قليلا من الصبر. أقول لنفسي، إنّنا في أقلّ من ساعة سنصل إلى الحيّ السفليّ، وأعرف ما حدث. ثم أتلهى بالنظر إلى سير الأشجار.

الخيمة الخضراء الكبيرة منصوبة في الساحة، نراها

ونحن، أنا وصديقي يوسف، نتقدم بخطى سريعة نحو الحيّ السفليّ. الخيمة، الّتي لا تظهر إلا في حالات الوفاة لأيّ شخص من الحيّ. الآن لا شك عندي أنّ أحدا مات. لكن من هو؟ أحاول أن أعرف ذلك، وأنا أتفحص الوجوه الكثيرة، الّتي تفترش أغطية عند مدخل الخيمة وصدرها.

ينقبض قلبي حتّى كدت أفقد وعيي، وأنا أرى أبي واقفا يمين الخيمة. يذهب تفكيري لجدّتي. هل ماتت؟ لكن الجواب لا يطول، إذ أراها في صدر الخيمة تبكي وتضرب بيديها على فخذيها. فمن مات إن لم يكن أبي ولا جدّتي؟ لم أفكر أن يكون هو؟

يحاول أبي أن يمنعني من دخول الخيمة، لكنّي أبعده بيدي، وأرتمي بين أحضان جدّتي. تضمني وهي تقول لي، وقد اختلط كلامها بعويلها: لقد قتلوه، لقد قتلوه. ابني لم ينتحر، لقد قتلوه.

يمنعني أبي من فتح ذلك الصندوق الخشبي، الّذي يحوي أخي. ثم يستنجد بالروخو الفسيان، الّذي يحاول تهدئتي

وإقناعي، ثم تهديدي لأنّ فتحه يعدّ خرقا للقانون. لكني أخبرهما أنّي سأفتح القبر إذا لم أر أخي. يسمع منّي أبي كلاما خبأته له بداخلي من سنين، ولم يكن ينتظره. انسحب وهو يعدل موضع طربوشه على رأسه. أمّا الروخو الفسيان فحاول أن يقنعني أنّ أخي انتحر بعد تجربة حبّ فاشلة. هدأت حين أخبرني أنّ الجثة تمّ تشريحها لمعرفة أسباب الوفاة، لذلك لا نريدك أن تراها وهي في هاته الحالة، رغم أنّه عمل كل ما في وسعه لتجنب ذلك.

مساءً يرفض الفقيه أن يقيم صلاة الجنازة على المنتحر، فيصدم الخبر جدّتي فتدخل في غيبوبة. لكن "الروخو الفسيان" يتدخل وتقام الصلاة.

تظل جدّتي في الفراش محمومة تستفيق من غيبوبتها لحظات ثم تعود إليها. وظلّت معها جميلة ترعاها حتى ماتت في ذلك الصباح وأنا أتهيأ لدخول امتحان البكالوريا. فلم أعلم بموتها إلاّ بعد أسبوع كامل.

***

ليس بمقدوري إخفاء ألمي وأنا أتطلّع إليها. أكتشف بشاعتها وقبحها. تقوّس حاجبيها وتمص شفتيها. تغادر القاعة بمشية متثاقلة. أتابعها بعيني. عند باب القاعة تستدير، وترمقني بنظرة أدرك من خلالها حجم الحقد الّذي تخفيه، ثمّ تختفي. فتظلّ نظرتي معلقة على الباب. بداخلي، أتمنى أن لا تعود. إنّي أشعر بالخزي والغباء. أدرك كم كنت غبيّا وبليدا، حين منحتها جسدي وأسراري! جسدي، الّذي خانني وحوّلني إلى خائن حبّ. الحبّ الّذي جعلني أتعلّق بالحياة، وحولني إلى حالم بعد يأس. ألم تكن جميلة هي الحياة؟ فما معنى الحياة دونها؟ إننا نفقد الحياة وتفقدنا، حين نفقد أحلامنا.

كيف لم أتفطن لها؟ كيف لم أكتشف دوافعها لإبعادي عن جميلة؟ لم تكن أسئلتها واستفهاماتها بريئة كم اعتقدت، ولا عطاياها مجانية. أدرك الآن أنيّ لم أكن غير بيدق سهل التحريك بين يديها ويدي العربي المونشو الخفية، ثم قدماني كبش فداء للنظام. لا أشك أن يكونا اتفقا معا ورتبا كلّ شيء. أعترف، الآن، بيقين ثابت أنّي كنت بيدقا

سهلا ومغفلا.

الآن، عليّ أن أتهيأ للاعتراف. الاعتراف بكلّ التهم المنسوبة لي. فيما سيفيدني الإنكار غير إطالة زمن التعذيب، وربّما اللجوء لطرق أخرى أكثر قذارة. لا أنكر، أنّي أخشى وأعجز عن وصف خوفي وقلقي من مجرد التفكير في أن يجلسوني على قارورة بقوّة. جسدي كلّه يرتعش وأنا أتخيل ذلك. أصرخ مجهدا نفسي قدر ما أستطيع، أريد أن أعترف.

يتّحلقون حولي ضاحكين. يفحصونني بنظراتهم، ثم يتطلّعون لبعضهم البعض. يحملونني ويجلسونني على الكرسي، عاريا ومكبل اليدين، كما كنت. يتقدّم واحد منهم ويهمس في أذني، إن كان لديّ ما أقوله. أشعر بصوته ساخرا، لكني أهز رأسي موافقا. يهمس لي من جديد، إنّهم يسمعونني، وعليّ أن أقول ما عندي.

واثقا بأنّ ما عندي لا يكفيهم، ولا يجعل منه تهما كبيرة ترضي تقاريرهم، أبحث في ذاكرتي عن أيّ شيء أو فعل يجعل منّي خائنا كبيرا ومتآمرا على الوطن مع كلّ أعدائه في

الداخل والخارج. لست مهتما بما سأقوله، لأنّهم لا يسمعون إلاّ ما يرغبون في سماعه. سأبدأ، بعد أن أطلب سيجارة وكأس ماء، على الرغم من أنّي لست بحاجة لهما، فبطني لازال الماء يتموج داخله، وماذا أفعل بسيجارة وأنا لم أمضغ شيئا منذ ثلاثة أيّام؟ أرغب فقط، في معرفة مدى جديتهم واهتمامهم بما سأقول.

يتطلعون إلى بعضهم البعض لحظات. يفكون وثائقي. يحملونني كشاة لقيت حتفها، ويعيدونني لزنزانتي المظلمة. يرمونني داخلها على الأرض، ثمّ يرمون ملابسي المبللة على جسدي. يأمرونني بقول اعترافي بصوت مرتفع. إنّهم يسمعونني.

منطويا في ركن، أسترجع بعض أنفاسي. ثمّ أجمع ثيابي المبللة، وأضعها على جسدي محاولا ستره، رغم أنّي متأكد من أن لا أحد يراني. أفكر فيما سأقوله. لست معنيا بما يدور خارج الزنزانة، ولا أعرف منه شيئا. ربّما، صورتي الآن تتداولها الصحف، واسمي يدور بين أفواه صحفيي النظام. أو ربّما، اسمي قد قيّد في سجلّ الوفيات.

أبقى مدّة من الزمن أحدق في السّقف، الجدران والباب. سيكون الأمر مخيبا لي لو أنّهم لا يرونني ولا يسمعونني. أدرك الآن، أنّي خسرت حياتي من أجل لا شيء. خسرتها لأنّي حيّ. الموت وحده من يجعل حياتنا ذات قيمة.

أقول: الحياة ليست خيارا، إذا كنّا نأتيها بلا سؤال، أما مغادرتها أو البقاء فيها فهو خيار من حقّ الجميع.

أقول: حاولت الانتحار في يوم، اعتقدت لسنين أنّه اليوم، الّذي تحرر فيه الإنسان، لكنّي لم أشعر أنّي حرّ أبدا، ولم أكن أرغب غير تحرير نفسي.

أقول: الحياة تفقد قيمتها، حين نفقد أسبابها. فلماذا نحيا للاشيء؟

أقول: عشت أعواما زاخرة بالحب والأحلام، لكنّي فقدت كلّ ذلك. فقدت الحب وكل من أحببت وأحبني. وفقدت معهم كل أحلامي. فقدت كلّ ذلك بغير إرادتي ولا رغبتي. قاومت لتحقيقها بغريزة البقاء، لكنّي لم أجن غير الخيبات.

أقول: عشت مع قطط آلفتني وتآلفت معها بدل الناس، فلم أر غير أصابع الاتهام تشير لشخص يريد مواصلة حياته على غير عادتهم. يزعجونك لأنك مختلف عنهم.

أقول: كم أتعبني عقلي! وكم عذبني تفكيري! فلا عمل لهما، خارج مخططات نظام قائم على المؤامرة. نظام يبحث عن استمراريته بخلق الأعداء والخيانات.

أقول: ليس هذا هو المكان، الّذي حلمت به، مثل كلّ الأحلام الأخرى، لكنّي سأعيش فيه ببلادة وغباء، مدركا أنّها ستكون أعواما طويلة.

أصمت، وأعود للتحديق في السقف، الجدران ثمّ الباب. أشعر بشيء ما يقاسمني الزنزانة، لكنّي عاجز على رؤيته. هل يسمعونني؟ هل يكتبون اعترافي؟ بداخلي لا أرى جدوى من ذلك. فلا أحد سيصدقني أو يصدق حكايتي إلاّ من عاشها مثلي أو ساهم فيها.

النهاية .....

عند مجيء اللّيل، وأنا على سريري أفكر محاصراً ذهني في يوم انتحاري. عليّ أن أجد جوابا مقنعا لاختياري ذاك اليوم. كان من الممكن أن يكون الأمر جيّدا ومريحا لي، لكنّه صار أمرا سيئا. أسوأ مما تخيلت. فقط، لأنّ محاولتي فشلت. ماذا سيتغيّر أن نموت أو ننتحر في يوم يصادف تاريخه يوم عيد استقلال الوطن، وقد مرّ عليه عشرون سنة، أو في غيره؟ لم أعتقد أنّي الشخص الّذي يهتم به الآخرون ليكون يوم انتحاري يوما ذا شأن! أواجه الأمر بسخرية تامة بداخلي. السخرية من شيء لم أضعه في الحسبان. السخرية من تبرير ما لا يُبرّر، تبريرا مقنعا.

لم أقتنع يوما أنّي حيّ، وما من أحد اهتم بحياتي. فلماذا يهتمون بموتي؟ ألم أكن بينهم كما الميت؟ اعتقدت لسنوات أنّ حياتي ملكي، واليوم اكتشف أنّها ليست كذلك.

9 789931 928133